المبحث الرابع
سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية

أولاً: العلاقات مع مملكة بيت المقدس:

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس، بلدوين الثالث ٥٣٩هـ - ٥٥٧هـ /١١٤٤م - ١١٦٢م، وعموري الأول ٥٦٨هـ/١١٦٢/١١٧٤م ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا على أرض المملكة وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا، وتمكن من توسيع حدود المملكة وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م وأمن بالتالي حدوده الجنوبية، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته في مواجهة أعدائه المسلمين وأيضاً سعى إلى حماية إمارتي طرابلس وأنطاكية من خطر الفوضى الداخلية [١]، والأخطار الخارجية وهدف إلى كسب عون الإمبراطورية البيزنطية لتساعده في مواجهة الأحداث في شمال الشام أما الملك عموري الأول، فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر وعمل على غزو مصر وإخضاعها لسيطرته دون جدوى، وسعى إلى طلب العون البيزنطي في مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر [٢] وقد عمل نور الدين محمود للتصدي لمشاريع مملكة بيت المقدس التوسعية وكان دافعه المحرك في ذلك هو عقيدة الجهاد في سبيل الله لا كما يزعم بعض الباحثين لاسيما من الغربيين الذين أنكروا ذلك الاتجاه لأسباب استشراقية تعصبية لا تخفى على أحد، وفي مقدمتهم المؤرخ الأمريكي جون لامونت الذي أنكر الطابع الديني لحروب نور الدين محمود، وفضل الأخذ بالدوافع السياسية ورأى أنه لم يكن مهتما بالحروب الدينية اهتماماً خاصاً وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا في مجال توسعه الطبيعي [٣]، وأن رغبته في توسيع رقعة مملكته في الاتجاه الوحيد الممكن هي التي أملت عليه السياسة التي اتبعها في علاقاته مع جيرانه اللاتين، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل في ذلك وأن مراجعة أعماله الحربية توضح أن دافعه الرئيسي كان سياسياً [٤]. والواقع أن الرغبة في القضاء على عقيدة الجهاد الإسلامي التي ازدهرت في مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية لفكرة الجهاد الإسلامي، واقتلاعها من أساسها، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام [٥]. ولا شك أن عقيدة الجهاد وتحرير المقدسات من الاحتلال الصليبي كان المحرك لحركة المقاومة للمسلمين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك وما يجري اليوم في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان.

وقد كان تحرك نور الدين محمود ضد مملكة بيت المقدس يستهدف تحقيق انتصارات في

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨.
(٣) الحروب الصليبية والجهاد لامونت نقلاً عن فن الصراع ص ١٣٩.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٩.
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٩.

المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري، بالقتال أحياناً وبالمفاوضات أحياناً أخرى.

– **المجال الاقتصادي**: فقد وصفت الدولة النورية بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي والمنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامي ثم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا وحصولهم على الدعم البشري والمالي والمعنوي وكان تصريف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامة الطرق التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجبل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلى الساحل الشامي البالغ الحيوية [١].

– **المجال السياسي**: مثَّل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية ولا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضروريا، من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره في مجاهدة الكفار ومثَّل هذا واجباً شرعياً ضروريا لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسي له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوي، أضف إلى ذلك أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام والجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكت بيت المقدس منافساً سياسياً خطيراً لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ذلك المنافس كان كياناً دخيلاً وافداً على المنطقة ولا يملك وجوده أصلاً أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لكافة الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية [٢].

– **المجال العسكري**: فقد أدركت الدولة النورية أن تجيش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الإستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد من هذا في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي [٣].

١ – المشكلة الحورانية:

تعد المشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التي جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ومطامعها في دمشق؛ إذ تمرد الأمير الأرمني الأصل التونتاش [٤]، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركي والذي تولى حكم بصرى وصرخد [٥]، تمرد على سيده

(١) الرحلة ص ٢٥٣.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.
(٥) تبعد بصرى مسافه ١٤١ك عن دمشق وعدت قصبة إقليم حوراه أما صرخد فبعدت عن السويدات بنحو ٣١ كيلو.

معين الدين أنر أتابك دمشق [١]، وقد تحدثت عن جهود نور الدين في دعم حاكم دمشق ضد هذا المتمرد الذي استعان بالصليبيين في بيت المقدس وطلب منهم العون الحربي، وأن يستولوا على بصرى وصرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً على إقليم حوران [٢]، فقد تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنر أتابك دمشق وجعلت منه هذه الزيجة بمثابة عون سياسي وعسكري لدمشق وفي نفس الحين حرصت أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة، ورغبته في ضمها إلى أملاكه في شمال الشام، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية وأمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق [٣]، وتوجه إلى صرخد ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعُدّته ووفور عِدَّته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخالتة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم وقضى الله تعالى بوصول من أخبر لتجمع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدِّين السير إلى ناحية بصرى وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين، فانهزم الكُفَّار وولَّوا الأدبار وتسلَّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرَّم وفي هذا الوقت وصل التونتاش - الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توُّهماً منه أن يُكرم ويصطنع بعد الإساءة القبيحة، فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خطّلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص، فسُمِل كما سَمَل أخاه، وأطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها [٤].

وتعتبر المشكلة الحورانية هي التي جعلت نور الدين محمود يواجه لأول مّرة خلال تلك المرحلة من حكمه في حلب مملكة بيت المقدس كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكري لأتابكية دمشق إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربي، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذي قبل على نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه، وعلى المستوى الصليبي؛ كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائها من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضح موقفها أن مطامعها السافرة في إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها ولا شك في أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقي الصليبي، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتوجيه لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش [٥].

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤١.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤١.
(٣) مرآة الزمان نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٤٣.
(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٨١.
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٤.

٢ – الحملة الصليبية الثانية:

وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس، إلا أن الصليبيين قرروا غزوها، وقد تحدثت عن الحملة الصليبية الثانية فيما مضى من الصفحات ودعم نور الدين وأخيه سيف الدين غازي لدمشق ويمكننا أن نقول: إن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق [١].

٣ – سقوط عسقلان:

حدث تطور كبير على جانب كبير من الأهمية وقع جنوب بلاد الشام لاسيما على الساحل في صورة عسقلان التي تمكن الصليبيون في عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان في عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م [٢]، وجاء ذلك في وقت ضعفت فيه الدولة الفاطمية في ظل تغلب الوزراء العظام وحقق الصليبيون بذلك انتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود والفاطميين وانتصارهم على نور الدين تفوق على انتصارهم على الدولة الفاطمية، لأن الأخيرين كانوا قد وهنوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما نور الدين مثل قوة سياسية وحربية متوثبة في شمال الشام تطمع في دمشق [٣]، وتأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها فقد مثلت مركزاً تجارياً هاماً على الساحل الفلسطيني، وقاعدة للأسطول الفاطمي، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية في الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامي من الإسكندرية حتى غزة جنوباً، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر [٤]. وعلى أية حال لم يكن لنور الدين محمود زنكي أن يقف لا يحرك ساكنا أمام التحرك الصليبي في الجبهة الجنوبية وسرعان ما أتى الرد دون تأخير، فتمكن نور الدين محمود بالفعل من الاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م أي في العام التالي مباشرة وبذلك حقق مكاسب أكبر من أن تحصى، فقد مد حدوده إلى الجنوب، ولم يعد منعزلاً في الشمال، وقد تمكن بذلك الإنجاز من تهديد حدود مملكة بيت المقدس ذاتها، ولم يعد أمامه إلا نطاق جغرافي ضيق محدود لكي يوجه ضرباته إلى الجليل بصورة لم تكن متوافرة له من قبل، وشتان بين توجيه الضربات في الأطراف والوصول إلى قرب القلب الصليبي [٥]، ولا نغفل أنه بإخضاع دمشق صار نور الدين محمود يسيطر بصورة أو بأخرى على ثلاثة مدن رئيسية يمكن أن توصف بأنها مدن الظهير الإسلامي في الجزيرة وبلاد الشام وهي: الموصل - التي دانت له بالولاء - وحلب ودمشق، وهي مدن ذات كثافة سكانية، فاعلة وأهمية اقتصادية حيوية من خلال وقوعها على خطوط التجارة الدولية، فإذا لم يغب عن ذهننا أننا أمام قائد للجهاد نذر نفسه له، أدركنا كم كانت المكاسب كبيرة للمسلمين بضم عاصمة الأمويين من قبل دمشق، خاصة مع عدم

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ إلى ١٢٧.
(٢) فن الصراع الإسلامي ص ١٤٨، الباهر ص ١٠٦.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٨.
(٤) التنظيمات الدينية، مؤنس عوض ص ١٤٨.
(٥) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٦.

إغفال أنها المرة الأولى التي اتحدت فيها حلب ودمشق مُنذ العصر السلجوقي تحت سيطرة سيد واحد [١]. ومن الزوايا ذات الأهمية البالغة: إدراك أن توجيه ضربات فاعلة للصليبيين تؤثر على قلبهم في بيت المقدس، لن يكون إلا بإخضاع المدن الأربعة المؤثرة في قبضة الدولة النورية، وهي الموصل، حلب، دمشق، القاهرة وهكذا لم تعد هناك إلا مدينة واحدة: هي القاهرة قلب الوجود الفاطمي الذي بلغ من الكبر عتياً، ويلاحظ أن ضمها لشقيقاتها الثلاثة سيتأخر من خلال اعتبارات عديدة [٢] يأتي بيانها وتفصيلها في محله بإذن الله تعالى. على أية حال: من الممكن تناول قضية مهمة وهي أيهما حقق مكاسب سياسية حربية أخطر، بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ/ أم نور الدين محمود باستيلائه على دمشق عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م. إن إسقاط عسقلان كان بمثابة إسقاط إحدى المدن الشامية الساحلية وربما كان له تأثيراته الكبيرة في حالة عدم تمكن ذلك الحاكم المسلم من انتزاع دمشق من قبضة البوربيين، إذ أنه اكتسب العديد من المميزات وأدى ذلك إلى نقله لمجال جديد أرحب من ذي قبل، ويلاحظ أنه إذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان انفتحت أمامهم الأبواب نحو مصر، على اعتبار أن عسقلان عدت بوابتها، إلا أن الاستيلاء على دمشق فتح الطريق هو الآخر أمام نور الدين محمود نحو ذات الهدف، ومن ثم سيحدث فيما بعد التسابق بينه وبين الصليبيين لإسقاط مصر الفاطمية وهكذا نصل إلى حقيقة مفادها؛ إن استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان، كان من الممكن أن يكون على أكبر قدر من المكاسب في حالة استمرار الوضع القائم في صورة ارتباط نور الدين محمود بحلب في شمال الشام، أما الآن بعد الاتجاه جنوباً نحو دمشق، تأكد للصليبيين أن سيد حلب صار سيد حلب ودمشق معا. ويكفي أن نطالع ما سطره مؤرخ الصليبيين البارز وليم الصوري كي ندرك كيف أن إخضاع عاصمة الشام عد أحد مظاهر الخطر الإسلامي القادم في الأفق على نحو ينذر في الأفق على نحو ينذر بأوخم العواقب على الصليبيين والمسلمين إلى مرحلة جديدة اتسمت باحتدام الصراع بينهما، والتسابق على مناطق نفوذ جديدة بقوة عسكرية أكبر وكأننا أمام استعراض عسكري للقوة من كل من الطرفين المتنافسين، وواقع الأمر أن التسابق على ضم مصر لأحد الجانبين لم يكن ليبدأ دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية في صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق [٣].

٤ – معركة بانياس:

شهدت العلاقات بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، والتي وقعت في وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعوية وميزتها الاستراتيجية، كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة وإعلان الحرب على الدولة

(١) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٧.
(٣) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٨.

النورية فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطعان الماشية [١] كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعي حيث وجد الفلاحون والرعاة طمع الصليبيين في أسرهم واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق التي حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة، كذلك احتلت بانياس أهمية إستراتيجية متميزة إذ وقعت بالقرب من دمشق وفي المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق [٢]، ولا شك أن كافة تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بلدوين الثالث على شن هجومه على بانياس، وكان الرعاة والفلاحون المسلمون في المنطقة قد ارتكنوا إلى وجود معاهدة السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديد، تم سلب قطعان الماشية وأسر العديد ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعني بهم الاسبتارية والداوية [٣]، ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمي وليم الصوري، أقر واعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث على بانياس، كانت خرقاً للاتفاقية المعقودة مع نور الدين، وأن الأمر كان أبعد من أن يكون مجداً عسكرياً للمملكة الصليبية [٤] ولم يكن هناك مفر من الرد العسكري النوري، وقد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كلل بالنجاح، وقتل منهم الكثيرون وعلى حد قول ابن القلانسي: صاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح [٥] وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس [٦]، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها في نفس العام [٧]، وعاد نور الدين وفرض سيطرته عليها عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م [٨] وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم وأذِن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلمه بقلَّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيَّق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نُصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى [٩]، ولما فتح نور الدَّين حِصن بانياسِ، كان ولد معين الدين أنر الذي سلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من نار جهنم[١٠].

(١) المصدر نفسه ص ١٨٨.
(٢) فن الصراع بين المسلمين والصليبيين ص ١٤٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٩.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥١.
(٥) ديل تاريخ دمشق ص ٣٣٩.
(٦) الحركة الصليبية، عاشور (٦٦٨/٢).
(٧) المصدر نفسه (٦٦٨/٢).
(٨) شذرات الذهب نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٢.
(٩) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٣٧/١).
(١٠) المصدر نفسه (٤٤٠/١).

٥ – اتفاقيات وهدنة قصيرة:

وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة، لاحت في الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب متمثل في اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الثلاثة أشهر والعامين وقعت بين الطرفين ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التي اتبعها نور الدين محمود في بعض الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس وتتمثل في إبعاد اقتصادية وعسكرية وإستراتيجية. وكانت الدولة النورية تهتم بالعلاقات التجارية مع القوى الصليبية في بلاد الشام لعدة اعتبارات منها أن بعض المواد الخام وجدت في أرض أعدائها وكانت في حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع، ثم إن بعض الطرق التجارية الدولية التي مرت ببلاد الشام كانت منافذها في المناطق الساحلية الصليبية وكان تصريف الدولة النورية يحتم ضرورة وجود صلات ما من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا، كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت القدس كانت تدر على الدولة أرباحاً طائلة من عائد - العشور - على نحو يدعم ميزانيتها، وتوجد إشارات إلى وجود علاقات وثيقة بين الجانبين على المستوى التجاري، ويقرر ابن جبير أن: اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض. ويضيف أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين [١]. وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر الأيوبي، فإنه يعد امتداداً طبيعياً لما هو موجود بصورة فعلية من قبل في عهد الدولة النورية [٢]، ومن جهة أخرى، فبالنسبة للصليبيين، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل (قضاء حوائجهم) [٣]، وطبيعي أن من بينها عمليات الشراء والمتاجرة مثلما حدث عام ٥٤٦هـ/١١٥١م [٤]. ولا شك في أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية، بل إن تلك المصالح هي التي حددت - في بعض الأحيان - موقفها السياسي من أعدائها [٥]. وأما الجانب العسكري، فتمثل في أن الحروب التي خاض غمارها الجيش النوري ضد مملكة بيت المقدس كانت حروباً موسمية في الغالب، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على مدى العام بأكمله، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم إن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة، وإعداد الجند وتوفير التموين اللازم وإعداد الدواب إلى غير ذلك، ثم إنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة على نحو هددها اقتصادياً، وأمام تلك

(١) الرحلة ص ٢٥٣.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٤.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٤.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٥.
(٥) المصدر نفسه ص ١٥٥.

الاعتبارات كان الاتجاه السلمي مطلباً ضروريا من وجهة النظر النورية، ولا نغفل أيضاً أنها اتجهت إلى مهادنة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب في الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية أو لكي تواجه سلاجقة الروم، وكان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقى الرحى، إمارة أنطاكية وهي تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجاري في حلب، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجاري والصناعي في الجنوب أي في دمشق، إذ أن ذلك كان يعني استهلاكاً أكبر لطاقاتها البشرية والمادية على نحو أدى إلى تشتيت قدراتها وعدم تحقيقها لإنجازات كبيرة على أي من الجبهتين [١]. ونجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة ٥٥٠/١١٥٥م لمدة عام وفي العام التالي ٥٥١هـ/١١٥٦م [٢]، تجددت الموادعة تم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية [٣]، وفي نهاية المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعي بانياس، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م وعلى أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عموري الأول، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م [٤] تركزت المعاهدات والهدنات التي وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية في المدة من عام ٥٥٠هـ/١١٥٥م وعام ٥٦٨هـ/١١٧٣م وطبيعي أن عقد الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً [٥]. كان هدف نور الدين توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين وكانت سياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقي في القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم في مرحلة تالية، وقد تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، ويظهر دهاء نور الدين في استخدام عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب ويدعم قواته في آن واحد، ولم تشهد ساحات الصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضي فيها على قواته قضاءً مبرماً، وحق للمؤرخ السرياني المجهول، ووليم الصوري أن يصفاه بالدهاء والحكمة[٦]، ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة اللاتينية إلى نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلعي وأفاد من حركة القوافل الصليبية في فرض - العشور - على نحو دعم اقتصاديات دولته وأمدها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين [٧]. وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة في صراعه ضد الصليبيين، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه سمايل واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم، وأرجع ذلك إلى جبنه وانعدام روح المبادرة لديه وخوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية، وأن الغزوات في عهده لم تكن تتسم بالطموح، والواقع أن استعراض مراحل

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٦.
(٢) ذيل تاريخ دمشق نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٥٦.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٩١.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٧.
(٥) المصدر نفسه ص ١٥٨.
(٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٩.
(٧) المصدر نفسه ص ١٥٩.

صراعه مع المملكة الصليبية تعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية، ولم تستطع المملكة اللاتينية أن تفرض سيطرتها عليها، لذلك فإن إخضاع مصر عام ١١٧١/٥٦٧م/ لسيادته حسم الصراع حولها والذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين وكان نور الدين يحارب في جبهات عديدة في وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم إن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية وقد ساهمت جهود نور الدين محمود وصراعه مع مملكة بيت المقدس لتمهيد سبيل صلاح الدين الذي استطاع إسقاط مملكة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وقد امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته [١].

٦ – الرصيد الأخلاقي في قتال نور الدين للأعداء:

يروى أنه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين وهم يعدون العدة لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة في ما بينهم، وقالوا لنور الدين: إننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد، فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبيين وقبل أن يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف، إن حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب؛ فلم يشاطرهم نور الدين الرأي وقال لهم: إن مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة، فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخناً بالجراح، إن أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجم ونخرجهم من أرض نعدّها ملكاً لنا ونرفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فإني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي ولكن للتعزية. وما لبث أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة [٢]، معزياً إياها بوفاة العاهل الراحل، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان الإمبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لها فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكد لها الرسول أن نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله [٣] ومروءته.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٩، ١٦٠.

(٢) هي الأميرة البيزنطية تيودورا وكانت قد زفت إلى بلدوين الثالث سنة ٥٥٣هـ/١١٨٥م وهي في الثالث عشر من عمرها وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة.

(٣) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي ص ١١٣ الجنة في ظلال السيوف ص ٧٥ - ٧٧ حبيب جاماتي.

ثانياً: العلاقات مع الإمارات الصليبية:

من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت في إقامة ثلاث إمارات هي الرها في أعلى نهر الفرات وأنطاكية في أقصى شمال الشام وطرابلس على الساحل اللبناني، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية [١].

١ – إمارة الرها:

حاول جوسلين الثاني استرداد إمارته المفقودة في عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م وذلك بعد مقتل زنكي، بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها [٢]، وأمكنه عبور نهر الفرات في ربيع الثاني من عام ٥٤٢هـ/أكتوبر ١١٤٧م وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها، وإن عجز عن قلعتها[٣]، نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها[٤] أمام ذلك الموقف، هب نور الدين إلى إنقاذ الرها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار، وقد تمكن الجيش النوري من إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وأصيب جوسلين نفسه وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش [٥]، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتى بلغ سميساط وفر من كان معه في اتجاهات متفرقة، وقامت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها، كعقاب لأهلها على تمردهم وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة [٦]، ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثاني استرداد الرها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذي حققه والده زنكي بإخضاع أولى الإمارات الصليبية وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم إستراتيجية كبرى، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية في المنطقة الممتدة في شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها، كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الإستراتيجي القائم بين المدينتين، والذي حرص نور الدين على عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة [٧].

أ – هزيمة نور الدين:

سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي تقع شمالي حلب، منها تل باشر، وعين تاب، وَعَزاز وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦١.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٤.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٥.
(٥) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٦) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٧) المصدر نفسه ص ١٦٦.

حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار [١]، كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصر وغيرهما من تلك الأعمال وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره [٢].

ب – أعمال نور الدين للحيلة ووقوع جوسلين في الأسر:

عظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً وإما أسراً، فاتَّفق أن جوسلين خرج في عشرة، وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأة منهم فخلا معها تحت شجرة، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً.. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملَّة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره، وحاق به مكره قال تعالى: **{وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ}** (فاطر، آية: ٤٣). فلما أسر تيسَّر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب، وعزاز، قُورُس والرَّاوندان، وحصن البارة، وتل خالد. وكفر لاثا، وكفر سود، وحصن بسرفوت بجبل بني عُليم ودُلُوك، ومرعش، ونهر الجوز، وبرج الرصاص [٣]. وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء [٤]. لقد رغب نور الدين محمود زنكي في تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل وبين حلب ودولة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهمية كبيرة إذ أنها على ما يبدو فرضت نوعاً من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه وبالذات في الجزء الشمالي لبلاد الشام، أما الدوافع الإستراتيجية العسكرية فتمثلت في رغبة نور الدين الأكيدة في تأمين الخط الدفاعي الحربي الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والحصون في أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً، ويمكن تلخيص سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها، تمثلت في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك أن دوره في هذا المجال

(١) سلاح دار: معناه ممسك السلاح.
(٢) كتاب الروضتين (٢٤٦/١).
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٤٦/١).
(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٤٧/١).

كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلا، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده [١]، ولقد أصبحت انتصارات نور الدين يتغنى بها الشعراء فقال ابن منير:

لقد أشعرت دين الله عِزًّا ::: تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناسُ فوضى ::: قويُّ منك في الجُلِّيَّ أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف ::: أسير في صفادك أو كنين
فَبَرَنْسْتَ البرنسَ لقاع خسف ::: وجُرِّعَ مُرَّ جوسلين [٢]

٢ – إمارة أنطاكية:

تولى حكم إمارة أنطاكية خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء، ريموند دي بواتيه (٥١٩ ـ ٥٤٣هـ/١١٣٦ ـ ١١٤٩م وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته في استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصي. ورينودى شاتيون أو أرناط في المصادر العربية (٥٤٨ ـ ٥٥٧هـ/١١٥٣ ـ ١١٦٢م)، فقد شن هجماته على الأعمال الحلبية ووصف بالاندفاع والتهور، وجرت تصرفاته على الصليبيين في بلاد الشام بصفة عامة أوخم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره، وتمكن بالفعل من ذلك ومكث في السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة. وتولى بوهيمند الثالث ٥٥٨ ـ ٥٩٥هـ/١١٦٣ ـ ١٢٠٠م) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دى بواتيه، ويلاحظ أنه أسر في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م [٣] وقد كانت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة أنطاكية، قد امتازت بتعدد المعارك الكبيرة التي خاضها ضدها على نحو لم تجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى [٤] ومن أشهر هذه المعارك:

أ – معركة يغرى:

في سنة ٥٤٣هـ سار نور الدين إلى يَغْرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضَّهم وقضيضهم، وقد عزموا على فقد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيل وأسير وفي هذه الوقعة قال القيسراني:

وكيف لا نُثني على عيشنا ::: المحمود والسلطان محمود
فليشكر الناسُ ظلالَ المنى ::: إن رِواقَ العدل ممدود
ونيَّرات الملك وهَاجة ::: وطالع الدولة مسعود
وصارمُ الإسلام لا ينثني ::: إلا وشِلْوُ الكفُر مقدود
مناقب لم تك موجودة ::: إلا ونور الدين موجود

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٩.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٧٠/١، ٢٧١).
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٩.
(٤) المصدر نفسه ص ١٧٠.

مُظَفَّـــر فـــي درعـــه ضَـــيْغَمُ ::: عليـــه تـــاج الملـــك معقـــود
نـــال المعـــالي حاكمـــاً مالكـــاً ::: فهـــو ســـليمان وداود
ترتشِـــفُ الأفـــواه أســـيافهُ ::: إنّ رُضـــاب العِـــزَّ مـــورود
وكـــم لـــه مـــن وقعـــة يومهـــا ::: عنـــد ملـــوك الشـــرك مشـــهود
والقـــوم إمـــا مُرْهَـــقٌ صُـــرْعَةٌ ::: أو مُوشَـــقٌ بالقَـــد مَشْـــدُودُ
حتـــى إذا عـــادوا إلـــى مثلهـــا ::: قالـــت لهـــم هيبتـــه عـــودوا
والكـــر والفَـــرُّ سِـــجال الـــوغى ::: فطـــارُوْ طـــوراً ومطـــرود
وإنمَّـــا الإفـــرنج مـــن لِغْيهـــا ::: عـــاد وقـــد عـــاد لهـــا هُـــودُ
قـــد حصـــحص الحـــق فمـــا جاحـــد ::: فـــي قلبـــه بأســـك مجحـــود
فكـــل مِصـــرٍ بـــك مُســـتفتِحٌ ::: وكـــل ثَغـــر بـــك مســـدود [1]

ب – معركة أنب:

وقعت معركة أنب في يونيه ١١٤٩م/صفر ٥٤٤هـ/ وقد حقق الجيش النوري فيها انتصاراً كبيراً وتم قتل ريموند دى بواتيه، وعدد كبير من كبار قادة الصليبيين ويلاحظ أن الشيعة الإسماعيلية النزارية وقفوا خلال المعركة إلى جانب الصليبيين؛ مما كشف بجلاء عن حقيقة دورهم خلال تلك المرحلة، ولقي قائدهم علي بن وفا مصرعه على نحو دلّ على التواطؤ والتعاون مع أعداء الإسلام [2] والارتماء في أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة [3] وقد قال ابن منير في مدح نور الدين قصيدة جاء فيها:

تفـــي بضـــمانها البـــيضُ الحِـــدادُ ::: وتقْضـــي دَيْنَهـــا السُّـــمْرُ الصَّـــعاد
وتـــدركُ ثارهـــا مـــن كـــلَّ بـــاغٍ ::: فـــوارس مـــن عزائمهـــا الجـــلاد
ويَغْشـــى حَوْمـــةَ الهيجـــا هُمـــامٌ ::: تَشُـــدُّ بضـــبعِهِ السَّـــبْعُ الشَّـــدادُ
أظنُّـــوا أنّ نـــارَ الحـــرب تخبـــو ::: ونـــور الـــدين فـــي يـــده الزِّنـــادُ
وجُنـــدٌ كالصـــقور علـــى صـــقور ::: إذا انقضـــوا علـــى الأبطـــال صـــادوا
إذا أخفـــوا مكيـــدتهم أخـــافوا ::: وإن أَبـــدوا عـــداوتهم أبـــادوا
ونصـــرة دولـــة حاميـــت عنهـــا ::: وهـــل تخشـــى وأنـــت لهـــا عمـــاد
وإن نُتْـــلِ القـــوافي مـــا تَلَتْـــهُ ::: بإنَّـــب مـــا يُؤَبِّنُهـــا سِـــنادُ
جـــرت بالنصَّـــر أقـــلام العـــوالي ::: ولـــيس ســـوى النَّجيـــع لهـــا مِـــدَاد
وطالـــت أرؤُس الأعـــلاج خصـــباً ::: فنـــادى الســـيف قـــد وقـــع الحصـــاد
أحطـــت بهـــم فكـــان القتـــل صـــبراً ::: ولا طعـــن هنـــاك ولا طِـــراد
وللإبرنـــز فـــوق الـــرمح رأس ::: توسَّـــد والسَّـــنان لـــه وســـاد

إلى أن قال:

وأذعنـــتِ الممالـــك واســـتجابت ::: مُلبِّيـــةً لـــدعوتكَ العبـــادُ [4]

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٠٠/١).
(٢) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٧٥.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧١.
(٤) كتاب الروضتين (٢٠١/١).

ومما قال بن القيسراني:

هـذا العـزائمُ لا مـا تـدَّعي القضـبُ ::: وذي المكـارم لا مـا قالـت الكُتُـبُ
وهـذه الهِمَـمُ اللاتـي متـى خَطُبـت ::: تعثَّـرت خلفهـا الأشـعار والخُطَـبُ
صـافحت يـا بـنَ عمـاد الـدين ذُرْوَتَهـا ::: براحـة للمسـاعي دونهـا تعـب

وهي قصيدة طويلة جاء فيها:

أبنـاء ملحمـةٍ لـو أنهـا ذكـرت ::: فيمـا مضـى نسـيت أيامهـا العَـرب
مـن كـان يغـزو بـلاد الشِّـرك مكتسـباً ::: مـن الملـوك فنـور الـدين مُحْتَسِـبُ
ذو غـرة مـا سـمت والليـل معتكـر ::: إلا تمـزق عـن شـمس الضـحى الحُجُـبُ
أفعالـه كاسـمه فـي كـل حادثـةٍ ::: ووجهـه نائـبٌ عـن وصـفِهِ اللَّقَـبُ
فـي كـلَّ يـوم لفكـري مـن وقائعـه ::: شـغل فكـل مـديحي فيـه مُقْتَضَـبُ
مـن باتـتِ الأُسـدُ أسـرى فـي سلاسـله ::: هـل يأسـر الغُلْـبَ إلا مـن لـه الغَلَـبُ[1]

إلى أن قال:

هـذا وهـل كـان فـي الإسـلام مكرمـة ::: إلا شـهِدتَ وغُبَّـادُ الهـوى غَيَـبُ

وقيل فيه قصائد كثيرة شعراء عصره بسبب فتوحاته ومعاركه التي خاضها مع الصليبيين. وعلى إثر مقتل ريموند دى بواتيه، اضطربت الأوضاع السياسية في أنطاكية، وحلت الفوضى بها واستولى الهلع على كافة الناس وأن الأرض صارت ممهدة أمام قوات نور الدين، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطار التي هددتهم وطبيعي أن سعي نور الدين إلى الإفادة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي، ومنها أزمان وأنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون) وبذلك قضى على المراكز الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية، بل إنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها واتفقت معه المدينة على الاستسلام في حالة عدم مقدم الملك الصليبي بلدوين الثالث، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم ولما باء بالفشل، عاد أدراجه إلى أنطاكية وعقد هدنة مع نور الدين [2]. واتجه نور الدين محمود إلى أسر أمير أنطاكية رينودى شاتيون مثلما فعل ذلك من قبل مع جوسلين الثاني وبالفعل تم أسره حوالي عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م على نحو بعث الاضطراب في تلك الإمارة الصليبية وبصورة عكست أن أسلوب أسر حكام الإمارات الصليبية، مثل أفضل الأساليب حينذاك التي من خلالها يتم إضعاف ذلك الكيان الصليبي وبعث الاضطراب والفوضى في صفوف أبنائه بصورة أو بأخرى [3].

(١) كتاب الروضتين (١/١٧٥).
(٢) إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية ص ٢٣٦.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٤.

ج – الاستيلاء على أفامية:

سار نور الدين إلى حصن أفامية سنة ٥٤٤هـ وكان حصناً منيعاً على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين إليه، وحصره وضيَّق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوْا جدَّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء وأكثروا [١].

س – حصار حارم:

في عام ٥٥٧هـ جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجَدَّ في قتالها فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعاتهم واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحِّلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطَّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده وممن كان معه في هذه الغَزَاة الأمير مُؤيَّد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله يومئذ كتب على حائطه [٢]:

لك الحمدُ يا مولاي كم لك مِنَّةٍ ::: عليَّ وفضلٍ لا يحيط به شُكري
نزلتُ بهذا المسجد العام قافلاً ::: من الغزو موفُورَ النَّصيب من الأجر
ومنه رحلت العِيسى في عامي الذي ::: مضى نحو بيت الله ذي الرُّكن والحِجرِ
فأدَّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما ::: تحملت من وزر الشَّبيبة عن ظهري

قال أبو شامة: أذكرني هذا ما كتبه أسامه بمدينة صور وقد دخل دار أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام:

احذر الدنيا ولا ::: تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثارِ مَن ::: صَرَعَتْهُ منَّا بالغُرورِ
عمروا وشادوا ما تراه ::: من المنازل والقُصُور
وتحوّلوا من بعد ::: سكناها إلى سُكنى القبور[٣]

ش – معركة حارم:

وفي سنة ٥٥٩هـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنج وقَصَدهم، واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصافَّ فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية،

(١) كتاب الروضتين (٢١٧/١).
(٢) المصدر نفسه (٣٩٦/١).
(٣) كتاب الروضتين (٣٩٧/١).

وقومص طرابلس وابن لجوسلين ودُوك الروم وذلك في رمضان [١]. وقد اشترك في هذه الغزوة ضد نور الدين، القوى الصليبية والبيزنطية والأرمينية [٢] وسبب الانتصار لنور الدين أنه لما عاد منهزماً في معركة حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره، - وثأر الإسلام - وغزو العدوَّ في عقر داره، ليرتق ذلك الفتق، ويمحو سِمَة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن - أي حصن كيفا - ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف، فأما قطب الدين أتابك جمع عساكره، وسار مجداً، وعلى مقدَّمة عسكره زين الدين نائبه وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال لـه خواصّه: على أي شيء عزمت؟ فقال على القعود، فإن نور الدين، قد تحشَّف من كثرة الصَّوْم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال لـه أولئك: ما عدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدَّها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنَّهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلابدَّ من إجابة دعوته، ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل ممن لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، مقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدَّوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدِّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، ملؤوا الأرض وحجَبُوا بقسطهم السماءَ، فحرض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح [٣] وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا على عِمَّ [٤]. وتيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار وتبعهم الفرنج وكانت تلك الضَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدو مكروه، وهو أن يبعد عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبَّروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً،

(١) المصدر نفسه (٤١٦/١).
(٢) فن الصراع البيزنطي الإسلامي ص ١٧٥.
(٣) كتاب الروضتين (٤١٧/١).
(٤) المصدر نفسه (٤١٨/١).

وعادت خيَّالتهم ولم يُمنعوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين، فسُقط في أيديهم، ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا، وخضعت رقابهم وذلُّوا فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلَّ جانب، فحينئذ حمى الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَات الطيور، فمزَّقوهم بَدَداً وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف [١]، وقال الذهبي:.. ثم التقاهُم في سنة ٥٩ فطحنهم وأسر ملوكهم، وقتل منهم عشرة آلاف بحارم [٢]. وأما أسروا وهم الذين من قبل ذُكروا [٣]. وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلَّوها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلَّموها إليه ومجاورة بوهيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الروم وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء وغير ذلك وعادوا سالمين ثم إن نور الدين أطلق بوهيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم [٤].

تلك كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغير حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الإمبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها [٥].

٣ – إمارة طرابلس:

عاصر نور الدين محمود اثنين من أمراء طرابلس، ريموند الثاني ٥٣٢هـ - ٤٤٧هـ/١١٣٧ - ١١٥١ - ١١٥٢م وريموند الثالث ٥٤٧ - ٥٨٣هـ/١١٨٧م في وقت اتسمت الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانيها إلى عالم البحر المتوسط، ودخلت إمارة طرابلس في صراع مصالح مع الشيعة الإسماعيلية بسبب وقوع قلاع الدعوة الشيعية الإسماعيلية في مناطق إمارة طرابلس، وحيث أن الاغتيال كان سلاح الشيعة الإسماعيلية الرهيب الذي أشهرته في وجوه

(١) كتاب الروضتين (٤١٨/١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤١٥/٢٠).
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤١٩٨/١).
(٤) المصدر نفسه (٤١٩/١).
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٧.

خصومها، فإن أمير طرابلس ريموند الثاني لم يسلم منه فقد تمَّ اغتياله [١].

أ – حصن أنطرسوس:

ورد الخبر في المحرَّم من عام سبع وأربعين وخمس مئة بنزول نور الدين على حِصن أنطرسوس في عسكره وافتتاحه وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عِدَّة من الحصون بالسَّبْي والسيَّف والإخراب والإحراق والأمان [٢] وقال ابن المنير قصيد يمدح نور الدين ويهنِّئه بفتح أنطرْسوس وغيرها فقال:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكاً ::: وتؤوب منه مؤيداً منصوراً
تُدْني لك الأمل البعيد سَواهُم ::: مُحِقت أهِلَّتُها وكن بُدُورا

وجاء فيها:

هَتَمتْ طرابلساً فأصبح ثَغْرُه ::: البسَّامُ من عِزَّ الثغور تغيراً
ضحكت لك الأيام واكتأب العِدَى ::: لقاً فجئت مبشراً ونذيراً
لا مُلك إلا ملك محمود الذي ::: تَخِذَ الكِتابَ مظاهراً ووزيراً
تمشي وراء حُدُودِه أحكامه ::: تأتُّمهنَّ فَيُحكمُ التّقديرا
يقظان ينشر عدله في دولة ::: جاءت لمطوِيَّ السَّماحِ نشورا [٣]

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة اخترت منها هذه الأبيات:

مَلْكٌ تكنَّف دين أحمد كِنَّه ::: فأضاء نَيرهُ وصاب شهابه
فالعدل حيث تصَّرفت أحكامه ::: والأمن حيث تصرَّمت أسرابه
متهلّلٌ والموت في نَبَراته ::: يرُجي ويُرْهَبُ خوفه وعقابه
طَبَع الحديدَ فكان منه جَنَانُه ::: وسِنَانُه وإهابه وثيابُهُ
ويهش إن كَبَتِ الوجوه كأنَّما ::: أعداؤه تحت الوغى أحبابه
نُشِرت بمحمود شريعة أحمد ::: وأرى الصَّحابة ما احتذاه صحابه[٤]

ب – حصن الأكراد:

في عام ٥٥٨هـ جمع نور الدين عساكره، ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم فأراد المسلمون دفعهم، فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هنالك للنوبة،

(١) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٢) كتاب الروضتين (٢٨٠/١).
(٣) كتاب الروضتين (٢٨٢/١).
(٤) المصدر نفسه (٢٨٢/١).

ولسرعته ركبه وفي رجْله شِبْحة [١] فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقتُل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلِّصي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوقة والغِلمان، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قَدسَ على فرسخ من حمص وبينهما وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا ووالله لا أستظلُ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر وفرَّق ذلك جميعه على من سَلم وأما من قُتل فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر - العطايا - إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مئتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابَّ والخيام، والسلاح وغير ذلك؛ وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين ينُهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه، فأعاد الجواب: لا تكذَّروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره [٢] وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك: فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا [٣]. ومما يذكر في هذه الهزيمة موقف الشيخ البرهان البلخي حيث قال: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور. كلا. وكلا ما مع هذا، فلما سمع نور الدين ذلك، قام ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الفرنج [٤].

ج – فتح حصن المنيطرة وبعض الحصون:

(١) هي التي تربط يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣٩٩/١).
(٣) كتاب الروضتين (٣٩٩/١).
(٤) المصدر نفسه (٣٨٠/١).

اتجه الجيش النوري إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة في عام ٥٦١هـ/١١٦٥م وغنم الغنائم الوفيرة وفي العام التالي ٥٦٢هـ/١١٦٦م تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد، وسلب الغنائم، كذلك تمَّ الاستيلاء على حصن صافينا والعريمة وهما من حصون الإمارة المنيعة، ووقع صدام بين الجيش النوري، وجيش إمارة طرابلس ٥٦٥هـ/١١٦٩م فيما عرف بمعركة اللبوة، وبعد عامين أي في عام ٥٦٧هـ/١١٧١م واصل نفس السياسة وتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة واستولت عليه عام ٥٦٧هـ/١١٧١م واحتوى على جميع ما فيه وغنم الناس غنيمة عظيمة [١]. كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها ولم تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية[٢]، ومما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري، معارك كبيرة مثل يغرى، وأنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون، مثل المنيطرة، وأنطرطوس، وغيرها [٣]. وكانت المعارك جميعها برية ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية، خاصة إمارتي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل، بسبب تصدي مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانٍ [٤].

ثالثاً: العلاقات النورية – البيزنطية:

عاصر عهد الدين محمود في بلاد الشام عهد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين ٥٤٠ - ٥٧٥هـ/١١٤٥ - ١١٨٠[٥]، الذي تولى عرش الإمبراطورية خلفاً لحنا كومتين، وقد كان مانويل إمبراطوراً يؤمن بفكرة السيادة العالمية وساعده على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسياً ماهراً ورجل دولة قديراً، وقد كانت له سياسته في الشرق والغرب معاً، ورغب مثل أسلافه في فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية [٦]، وأراد القضاء على الإمبراطورية الغربية التي نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفاً عدائياً من الإمبراطور الألماني فردريك باربروسيا وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الإمبراطورية البيزنطية من خلال دوافع اقتصادية وسياسية وإستراتيجية عسكرية[٧].

(١) المصدر نفسه (٢٢٤/١).
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٣.
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٤.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١٨٤.
(٦) المصدر نفسه ص ١٨٦.
(٧) المصدر نفسه ص ١٨٨.

– **أما الدوافع الاقتصادية**: فتمثلت في رغبة نور الدين محمود في استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الإمبراطورية البيزنطية عدت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق التي دخلت الدولة النورية طرفاً هَاماً في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية ومنها الإمبراطورية البيزنطية وقد دعم الصلات التجارية بين الجانبين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمناطقها ونعني به طريق الشرق الأقصى - الخليج العربي - الشام، وقد بدأ من رأس الخليج العربي إلى البصرة ثم بغداد واتخذ اتجاهين صوب الشمال نحو ديار بكر والثاني باتجاه غربي نحو دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها، ومن تلك الموانى شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجاري بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية [١].

– **وأما الدوافع السياسية**: حاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانبين من أجل محاولة إيجاد توازن في علاقات الإمبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبي في بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الإمبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولا تغيب سطوتهم عن بلاد الشام وهذا ما هدفوا إليه. ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى في المنطقة، وعدم ارتماء بيزنطة بثقلها في دعم الصليبيين، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الإمبراطور البيزنطي، وكذلك الهدايا، ثم لم يجهر بالعداء تجاه تلك الإمبراطورية، بل حاول أن يكسب صداقتها بقدر الإمكان، ونجد ذلك واضحاً بالنسبة للغة المصادر الرسمية، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى الروم أي البيزنطيين [٢]، ولا مراء في أن الدولة النورية نجحت في تحقيق تلك السياسة التي مارستها أيضاً الإمبراطورية البيزنطية، وهي التي رأت أن دبلوماسيتها ينبغي أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها لإضعافها، من أجل أن تقوى الإمبراطورية نفسها، ولا شك في أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين [٣].

– **وأما الدوافع الإستراتيجية العسكرية**: فيمكن ملاحظاتها من خلال أن الإمبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة في المنطقة وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذي انتشر في الأعمال الإسلامية الشامية [٤] خلال مقدم مانويل كومنين بقواته مشاركاً الصليبيين، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحييدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام وفي الاتجاه

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩ ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٩.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ فن الصراع الإسلامي ص ١٩٠.

الجنوبي الغربي صوب الدولة الفاطمية [١].

١ – تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية:

كانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاستقطاب مانويل هي المصاهرة فأرسل لهذا الغرض سفارة إلى البلاط البيزنطي في منتصف عام ٥٥٢هـ/صيف عام ١١٥٧م برئاسة أرتارد رئيس أساقفة الناصرة، الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين [٢]، وجوسلين بسيليوس ووليم دي باري، لطلب يد الأميرة تيودورة ابنة إسحاق أخي الإمبراطور [٣]، أحسن مانويل استقبال السفارة وكان أن تمّت الصفقة على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراضٍ والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابل تعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدمه الإمبراطور من مساعدة ومن الواضح أن مانويل استغل هذه الزيجة التي تمت في شهر رجب عام ٥٥٣هـ/ شهر آب عام ١١٥٨م للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الإمبراطورية في كيليكية وأنطاكية ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون صاحب أنطاكية وكان هذا الأخير قد حالف ثوروس الثاني صاحب أرمينية الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخذ فيه الإمبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخُّم نفوذ الأمير الأرميني [٤].

2 – مانويل يغزو كيلكية:

لم تكد الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يقدر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى كيلكية ليسترد حقوق الإمبراطورية ومن ثمَّ سيتوجه إلى أنطاكية لإخضاعها وتأديب حاكمها رينولد شاتيون [٥]، وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يُموِّه على أهداف حملته واتسم خروجه بالسرية التامة وكان الأمير الأرميني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكانية حصول غزو بيزنطي لأراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من شهر رمضان / شهر تشرين الأول بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس فهرب إلى الجبال ثم دخل مانويل سهل كيليكية واحتلَّ بعض المدن والقلاع الكبرى مثل طرسوس، وتل حمدون وعين زربة والمعيصة التي اتخذ مقامه فيها، وأضحت

(١) فن الصراع الإسلامي ص ١٩٠.
(٢) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانيادس بين دمشق وصور.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٠٧.
(٤) وليم الصوري (٨٥٩/٢) تاريخ الزنكيين ص ٣٠٧.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٠٨.

كيليكية في قبضته، ولاذ ثوروس بالفرار إلى مكان آخر [١]، وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص، ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج لقدوم الإمبراطور الذي رابط على حدود إمارته إذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدَّى للجيش الإمبراطوري الكثيف فطلب مساعدة بلدوين الثالث متجاهلاً أن ملك بيت المقدس لا يقلُّ استياء على الإمبراطور، وأخَّر مثوله أمام الإمبراطور بانتظار وصوله إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، وعرض على مانويل تسليمه قلعة أنطاكية، ورأى الأمبراطور أن ذلك ليس كافياً، وأصرَّ على أن يحضر رينولد شاتيون إلى مجلسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب فعجَّل بالمسير إلى معسكر الإمبراطور خارج أسوار مدينة المعيصة وأعلن خضوعه له [٢].

٣ – مانويل في أنطاكية:

ما إن علم بلدوين الثالث باقتراب مانويل من أنطاكية، حتى عجَّل بالمسير نحو الشمال يرافقه أخوه عموري والبطريرك إيمري، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها، وإذ أظهر ملك بيت المقدس شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبأ العفو عن رينولد شاتيون، بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالإمبراطور ونتيجة للمباحثات التي جرت بنيهما تمَّ الاتفاق على ما يلي:

أ – عقد تحالف بين الطرفين.

ب – تسوية علاقات بلدوين الثالث برينولد شاتيون، وحصل الأول بالمقابل على وعد من الإمبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني دخل مانويل بعد ذلك مدينة أنطاكية في شهر ربيع الآخر عام ٥٥٤هـ شهر نيسان عام ١١٥٩م وأجرى مفاوضات أخرى مع بلدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب [٣]، ولم تذكر المصادر المعاصرة أن بلدوين الثالث اعترف في تلك المباحثات بسيادة الإمبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام [٤]. والواضح أنَّ ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نور الدين محمود إنما قصد به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية [٥].

٤ – مانويل في بلاد الشام:

وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويبعثهم على استعمال التيقظ

(١) المصدر نفسه ص ٣٠٨ وليم الصوري (٨٦٢/٢، ٨٦١).
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٨.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٠٨، ٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٠٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٠٩.

والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم [١]. ثم مضى إلى حلب والمناطق الشامية الأخرى يشحذ الهمم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان [٢]، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الإمبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في نفس الوقت للحرب وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم ومع هذه الكثرة العددية إلا أن نور الدين استهدف العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده وحتى لا يجعل دولته بين عدوين الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين، والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية أي بكافة القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية [٣] والملاحظة المهمة في فقه نور الدين زنكي المثابر في المفاوضات مع الاستعداد الكبير لحشد الجيوش والاستعداد للقتال واستنفار الأمة للتصدي وقد تخلل الاتصالات الدبلوماسية تبادل هدايا ومحاولة توطيد الصلات السياسية بين حلب والقسطنطينية [٤] ومهما يكن من أمر، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على:

أ – إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه مُنذ الحرب الصليبية الثانية [٥].

ب – تعهده بمساندة مانويل في حروبه ضد سلاجقة الروم [٦]. وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية والصليبية الشرط الثاني [٧]، وقد فرح المسلمون بهذا الاتفاق وبرحيل الإمبراطور بعد الصلح إلى بلاده، مشكوراً محموداً ولم يؤذ أحداً من المسلمين [٨] وقد ترتب على هذا الصلح نتائج إيجابية منها:

– أنها أنهت التحالف البيزنطي الصليبي وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على أنفسهم أو مساعدات أوروبا في صراعهم مع الزنكيين.

– أنها حفظت وحدة الشام والتي تعد الأساس الهام لأي وحدة بينها وبين مصر.

– أنها أعادت التوازن بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين من الساحة ومن ثم عاد النزاع بينهما على مصر متوازناً مرة أخرى [٩].

لقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفين بين التحالف البيزنكي والصليبي وهذا لم

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٤٠، ٥٤١ تاريخ الزنكيين ص ٣٠٩.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٩.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٩٦.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٩٧.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣١٠.
(٦) المصدر نفسه ص ٣١٠.
(٧) المصدر نفسه ص ٣١٠.
(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠، تاريخ الزنكيين ص ٣١٠.
(٩) الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط ص ١٣٧.

يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم السلاجقة ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الإمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة وغيرها من الأول، فقبل الإمبراطور وانسحب من الحلف الصليبي فأوقف الحملة وزال الخطر، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة أن تم استبعاد السلاجقة الروم من الصراع الدائر في المشرق ذلك أن الإمبراطور البيزنطي سرعان ما قام بحملة ضد السلاجقة وتعرض قلج أرسلان الثاني لضغط ثلاثي من ياغي أرسلان الدشمند والزنكيين والدولة البيزنطية ولما لم يكن باستطاعته أن يحارب على جميع الجبهات جنح إلى السلم وبدأ بالجانب الإسلامي، وتمَّ الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود [١].

وقد أحسن نور الدين في الأداء السياسي مع مانويل وقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسي في عدم إثارته للصراع مع الإمبراطورية البيزنطية واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمي معها وذلك من أجل تجنب تحالف صليبي - بيزنطي ضد دولته على نحو يؤدي إلى خسائر فادحة تلحق بهما، ولا شك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك المفاوضات، واستطاع تحجيم خطرها من خلال الاتصالات الدبلوماسية وقد ساند النجاح السياسي الكبير قوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي - الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م [٢].

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي إسلامي على أصول أهل السنة يستوعب طاقات الأمة ويكون للقيادة القدرة على الاستفادة من إمكانياتها الكبيرة في المجال العسكري والسياسي، والاقتصادي والتربوي والاجتماعي، والعلمي، والإعلامي.. إلخ.

رابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

في هذا الفصل كثير من الدروس والعبر والفوائد منها:

١ – التفكير الإستراتيجي عند نور الدين:

بعد أن تولى نور الدين الحكم كرّس جهوده وإمكانيات دولته لحرب الصليبيين وجعل القضاء على ممالكهم وإماراتهم وتحرير البلاد من احتلالهم من أهدافه الإستراتيجية وسعى لتحقيق ذلك بكل ما يملك من قوة وخاض ضدهم معارك عديدة قتل وأسر خلالها أمراءهم وقادتهم وعشرات الآلاف من رجالهم واستعاد أكثر من خمسين موقعاً وبلدة ومدينة منهم، ونور الدين محمود لم يكن قائداً عسكرياً فقط، بل كان زعيماً سياسياً يعلم أن للسياسة الدور الأكبر في مواجهة العدو وأن استخدام القوة العسكرية وخوض العمليات العسكرية إنما يكون لتحقيق الأهداف السياسية، فإذا أمكن تحقيق

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣١٢.
(٢) فقه الصراع الإسلامي الصليبي ص٢٠٦.

هذه الأهداف دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية أو باستخدامها، كتهديد فقد دون التورط في القتال فإن ذلك أفضل وأوفر للرجال والمال ومع أن تطبيق هذا المبدأ على حالة المسلمين مع الفرنجة لا يستقيم، لأن النزاع بينهما في بلاد الشام هو نزاع وجود، فلا تتحقق أهداف المسلمين إلا بالقضاء على الفرنجة، وهذا لا يتم إلا باستخدام القتوة العسكرية في نهاية الأمر، إلا أن النزاع طويل ولابد أن تتخلّله فترات هدوء يتم فيها الاستعداد والتحضير للجولات القادمة، أو التحول من جبهة إلى أخرى، كانت فترات الهدوء تحصل في بعض الأحيان بالاتفاق بين الطرفين على هدنة محددة المدة، لسنتين أو ثلاث سنوات، لا تجري فيها عمليات عسكرية بين الطرفين، وكان نور الدين لا يوافق على هدنة مع إحدى الإمارات الفرنجية إلا إذا كان ينوي التركيز على المواجهة مع إمارة أخرى، أو التفرغ لمعالجة بعض القضايا الداخلية، ففي عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م اضطر إلى منح جوسلين أمير تل باشر هدنة لمدة عامين، لأنه لجأ إلى معسكره رافعاً الرايات البيض مستجيراً وطالباً حماية نور الدين واعتبر نفسه تابعاً له [١]، كان الموقف محرجاً لنور الدين فهو لا يرغب منح جوسلين حمايته واعتباره أحد أتباعه ولا يستطيع ردّه خائباً عملاً بآداب العقيدة السمحة وتقاليد الفروسية التي كان يتمثل بها ويحرص عليها، فكانت الهدنة لمدة سنتين حلاً وسطاً بين الحالتين. وفي عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م حاصر نور الدين مدينة أنطاكية وطال الحصار دون أن يتمكن من فتحها فعرض عليه الفرنجة أموالاً وهدايا وطلبوا منه مهلة يقررون خلالها أمرهم فأمهلهم وسار إلى حصن أفاميا القريب من أنطاكية وكانت تحت الحصار أيضاً فافتتحه وعاد إلى أنطاكية يطلب من أهلها الاستسلام ويعرض عليهم الأمان لأنفسهم إذا استسلموا ولكنّهم تحصَّنوا بالمدينة ورفضوا العرض، وكان نور الدين قد علم بقدوم جيش الفرنجة من الجنوب لنجدة المدينة، كما وصلته أخبار عن معارك بين جوسلين أمير تل باشر وقلج أرسلان سلطان سلاجقة آسيا الصغرى، فاضطر إلى الاتفاق مع فرنجة أنطاكية على أن تكون المواقع القريبة من المدينة فقط تابعة لهم وأن تكون باقي المناطق باتجاه الشرق تابعة لحلب، ورفع الحصار عن المدينة متوجهاً نحو الشرق ليراقب الأحداث الجارية على الحدود الشرقية لمملكته [٢]. وفي عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م بعد استيلائه على دمشق التزم نور الدين بالهدنة التي كانت قائمة بين مجير الدين آبق حاكم دمشق وملك بيت المقدس وحدّدها عام ٥٥١هـ/١١٥٦م لمدة عامين آخرين ليتفرغ لعلاقاته مع جيرانه في الشمال سلاجقة آسيا الصغرى والأراتقة في الجزيرة الفراتية [٣]. ولكن ملك بيت المقدس نقض الهدنة في العام التالي واعتدى على بعض المواقع والبلدان التابعة لدمشق ونهبها، فانتقم منه نور الدين وانتصر عليه في عدة مواقع [٤] وفي عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م وقع نور الدين هدنة طويلة الأجل مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين الذي وصل على رأس جيش كبير إلى أنطاكية وحاول أمراء الفرنجة معه وتوريطه لغزو حلب، فراسله نور الدين واتفق معه على هدنة طويلة الأجل وأطلق سراح بعض الأسرى النصارى،

(١) نور الدين د. حسين مؤنس ص ٢٣٠.
(٢) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٧.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٧.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٧.

الذين أسرهم نور الدين وأرسل الإمبراطور لنور الدين هدايا كثيرة وثمينة الأمر الذي أغاظ أمراء الفرنجة، وأفشل مساعيهم وجهودهم للتحالف مع الإمبراطور ضد نور الدين[١]، وفي عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م كان تركيز نور الدين على الجبهة الجنوبية مع مملكة بيت المقدس، فقد كان يعتقد أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية لها، بعد ضم مصر واستقرار الأوضاع فيها فوقّع هدنة مع إمارتي طرابلس وأنطاكية ليتفرغ لأمر مملكة القدس... ولكن توفي قبل أن يحقق ذلك[٢].

كان الدور السياسي لنور الدين محمود أهم الأدوار في حياته فقد حقّق من خلاله أعظم إنجازاته بتوحيد المشرق الإسلامي، بلاد الشام ومصر وشمال العراق وشبه جزيرة العرب في دولة واحدة بزعامته، فكان هذا الإنجاز المرحلة الأساسية في مقاومة غزو الفرنجة والقضاء عليهم فيما بعد، وقد بذل نور الدين جهوداً مضنية في سبيل تحقيق هذا الإنجاز. ظهرت من خلالها حكمته ومهارته السياسية، لقد كان واضح الرؤية مُنذ بداية حكمه حتى نهايته، فقرَّر أهدافه الإستراتيجية الرئيسية وحدّد أولوياتها، ووضع الخطط المحكمة لتنفيذها فكان كما قيل: عبقرياً في التخطيط والتنفيذ [٣]، قضى أولاً على إمارة الرها التي كانت تشكل تهديداً خطيراً لدولته من جهة الشرق، فلايستطيع أن يتوجّه غرباً أو جنوباً دون أن يحسب حسابها، ثم ركّز على إمارتي أنطاكية وطرابلس فجردها من جميع المواقع شرق نهر العاصي، وحصرهما في شريط ضيق على البحر، وأصبحا لا يشكلان خطراً كبيراً على دولته وتفرّغ بعد ذلك لضمّ دمشق، فاستولى عليها دون إراقة دماء في خطة رائعة كانت مزيجاً من الدهاء والتهديد والترغيب، ومن بعد ذلك تطلع إلى مصر وأخذ يتهيأ لضمها وعندما سنحت الفرصة لذلك أظهر من العزم والتصميم والصبر والمرونة ما حقق له الفوز على الفرنجة وحليفهم الوزير المصري شاور وعندما لاحت الفرصة لضم شمال العراق عام ٥٦٦هـ/١١٧١م لم يتردد في اغتنامها فاستولى على الموصل دون إراقة دماء أيضاً بفضل ما يكنُّه أهلها له من حب واحترام [٤]، كان نور الدين حاكماً عظيماً، واكتسب احترام رعاياه وأعدائه على حد سواء [٥] وكان دوره السياسي سلسلة من النجاحات والإنجازات العظيمة المتوالية التي وضعته عن جدارة واستحقاق في مكان الصدارة بين الزعماء السياسيين في زمنه وجعلت منه مثالاً رائعاً للقيادة السياسية الحكيمة الناجحة على مدى الأزمان من بعده [٦].

٢ – أهمية صلاح أولي الأمر:

ورد ذكر أولي الأمر في القرآن الكريم أكثر من مرة، وفرض طاعتهم على المؤمنين وقرنها بطاعته وطاعة رسوله في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}** (النساء، آية: ٥٩). وقال في آية أخرى: **{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ**

(١) المصدر نفسه ص ١٦٧.
(٢) الباهر ص ١٥٤ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٨.
(٣) الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، هادية الدجاني ص ٢٨٣.
(٤) دور نور الدين محمود في غزو الأمة ص ١٦٨.
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٦١٣/٤) ستيفن رنسيمان.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٩.

يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} (النساء، آية: ٨٣). وألو الأمر صنفان الأمراء والعلماء وقدّمهم على الحكام بقوله: ليس شيء أعز من العلم الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك [١]. ويعتبر العلماء أهل الفكر بينما يعتبر الحكام أهل السياسة، ولابد أن يعمل أهل الفكر وأهل السياسة معاً حتى تتحقق مواصفات القيادة الصالحة للأمة [٢]، يقول الإمام الغزالي في هذا المعنى: الملك والدين توأمان، الدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له، فمهدوم وما لا حارس له فضائع [٣] ونتذكر هنا قول السلطان نور الدين محمود: إنما نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها [٤]. وقوله: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طرق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه [٥]. وقد رحم الله الأمة بأن هيأ لها قيادة صالحة تمثلت في السلطان نور الدين محمود الذي جمع من حوله العلماء والفقهاء وأشركهم في السلطة وأعاد لهم اعتبارهم الذي يستحقونه وسار على طريق الخلفاء الراشدين، فنهضت الأمة من جديد وتعافت من جراحها واستعادت قوّتها وأرضها ومقدساتها وكرامتها [٦]، وصدق الشاعر عندما قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ::: ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلا على عمد ::: ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة ::: يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[٧]

وحتى تخرج الأمة من أزمتها الراهنة لابد من صلاح أولي الأمر بصنفيهم: الحكام والعلماء ولابد من تعاونهم ليكونوا فريقاً واحداً في قيادة واحدة تسير على نهج السلف الصالح وللأمة في تاريخها خير عظة وعبرة، ولها العبرة كذلك من الدول المتقدمة في الوقت الحاضر حيث تشكل مراكز البحوث والدراسات الكثيرة المختلفة الأغراض مرجعاً للحكام في تلك الدول لتنفيذ سياستهم وتحقيق مصالح بلادهم، وفي دولة العدو (إسرائيل) يضع أهل الفكر من العلماء الخطوط العريضة التي تسير عليها حكومتهم في جميع المجالات [٨].

٣ – الاستفادة من المسيحيين:

قال الذهبي في أحداث سنة ٥٦٧هـ: وفيها هزم مليح بن لاون الأرمني السَّيسِنيُّ عسكر صاحب الروم وكان مصافياً لنور الدين، يبالغ في خدمته ويحارب معه الإفرنج ولما عوتب نور الدين في إعطائه سيْسَ، قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأُرِيحُ طائفة من جندي، وهو سُدُّ بيني وبين

(١) السياسة الشرعية ص ١٥٩.
(٢) إحياء علوم الدين (٧/١) دور نور الدين ص ٢٣٢.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٣٢.
(٤) إحياء علوم الدين (١٧/١).
(٥) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٢٣٢.
(٦) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٣٢.
(٧) الشهب اللامعة ص ٢٣٧..
(٨) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٢٣٣.

صاحب قسطنطينية [١]، وفي رواية لابن الأثير توضح بعد نظر نور الدين وحسن سياسته في هذا المجال فيقول: ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك المتولي للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه [٢]، وبذلك استطاع نور الدين أن يستفيد من الخلاف بين أرمينية وبيزنطة وحقق كسباً عسكرياً، وكفل للمسلمين حقن دمائهم وجنب المسلمين معارك رآها خاسرة بعد دراستها، فهو ربيب (الموصل) ذات الجغرافية التي تدخل الجبال تضاريسها الشمالية، وحرب الجبال كما هو معروف غاية في الصعوبة، ومن هنا ضن بدماء المسلمين في غير ضرورة [٣].

٤ – شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج:

أعطى نور الدين محمود الأولوية في أهدافه الإستراتيجية من حيث التنفيذ لهدف تحقيق الوحدة بين الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، مصر وبلاد الشام، لأنه أدرك من خلال تحليله للموقف الدولي والإقليمي أنه لن يتمكن من القضاء على دول الفرنجة في بلاد الشام وخاصة مملكة بيت المقدس قبل تحقيق الوحدة مع مصر [٤] وإزالة الجسم الغريب في الأمة المتمثل في الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية الباطنية ثم الاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب المصري ومن إمكانياته الكبيرة في المواجهة الأخيرة التي لابد أن تشترك فيها دول أوروبا إلى جانب الفرنجة في الشام وقد حصل هذا بالفعل فيما بعد في زمن صلاح الدين وثبتت صحة الإستراتيجية التي وضعها نور الدين وبدأ بتنفيذها ولكنه توفي قبل أن [٥] يكملها. ولذلك اتخذ نور الدين قراراً سياسياً في منشئه عسكرياً وفي طبيعة تنفيذه وهو يقصد من خلاله إضعاف قوّة الإمارات الفرنجية وكسر شوكتها، وتحطيم معنويات قادتها وأفرادها واسترداد ما يمكن استرداده من المواقع والحصون والقلاع منها، وقتل أكبر عدد ممكن من رجالها، وهذا هو مفهوم حرب الاستنزاف والغاية منها، حتى إذا ما تحققت الوحدة بين بلاد الشام ومصر وتوافرت الإمكانيات العسكرية الكافية تم القضاء على الإمارات

(١) سير أعلام النبلاء (٧٢/٢١).
(٢) الباهر ص ١٦٩ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٩.
(٣) الحروب الصليبية مواقف وتحديات ص ٧٣.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٦.

الفرنجية وإزالتها من الوجود، ومواجهة كل ما يمكن أن يتبع ذلك من تدخل أوروبي، يظهر صحة هذا التحليل من موقف نور الدين بعد انتصاره الكبير في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م حيث تم إبادة وأسر أغلب الجيش الفرنجي وكان من بين الأسرى قادة الفرنجة الثلاثة، أمير أنطاكية، وأمير طرابلس وقائد الحامية البيزنطية في المنطقة وأصبحت أنطاكية بعد المعركة هدفاً سهلاً، فلما طلب قادة نور الدين محمود منه مهاجمتها واحتلالها قال: أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل وإذا ضيَّقنا عليهم، أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وملكوه إياها ومجاورة بوهيموند أمير أنطاكية أحب إلى من مجاورة ملك الروم [١]، وقبل ذلك عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م قضى نور الدين محمود على جيش أنطاكية وقتل أميرها في معركة إنَّب[٢]، ثم تقدم إلى أنطاكية وحاصرها فامتنعت ولم يضَّيق عليها الحصار بل تركها بعد أن جرَّدها من أغلب حصونها الشرقية، وفي عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م وصل إمبراطور القسطنطينية بجيشه الكبير إلى أنطاكية في عرض واضح للقوة، وحاول أمراء الفرنجة استغلال وجوده مع جيشه الكبير فحرَّضوه على مهاجمة حلب واحتلالها وكان نور الدين محمود يتابع الأحداث فأرسل سفارة إلى الإمبراطور واتفق مع على هدنه طويلة بين الطرفين، كما تم تبادل الهدايا، وأطلق نور الدين بعض الأسرى النصارى. وتدل هذه الحوادث الثلاثة على أن نور الدين محمود كان يتجنب إثارة إمبراطور القسطنطينية حتى لا يضطر إلى مواجهة عدوَّين في وقت واحد، وأنه كان يسعى لتحييد الإمبراطورية البيزنطية ودول أوروبا جميعاً حتى تتغيَّر الأوضاع، وتتوافر له الإمكانيات الكافية لمواجهة هذه الأطراف، إذا تدخلت عندما يحّول حزب الاستنزاف إلى حرب تحرير شاملة يقضي من خلالها على إمارات الفرنجة في بلاد الشام ويؤكد وجود هذه الإستراتيجية عند نور الدين محمود قوله عندما أرسل له صلاح الدين الأيوبي هدايا من الجواهر والتحف التي استولى عليها من قصور الفاطميين بعد إسقاط دولتهم عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م فقد قال: والله ما كان لنا حاجة إلى هذا وما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل [٣]. وقد حقق نور الدين فوائد كثيرة وإنجازات كبيرة من خلال حرب الاستنزاف التي شنها على الفرنجة طول فترة حكمه (٥٤١هـ - ٥٦٩هـ) فقد استرجع منهم أكثر من خمسين مدينة وموقعاً وحصناً [٤]، وجرّد إمارتي أنطاكية وطرابلس من جميع المواقع والحصون التي كانت لهما شرق نهر العاصي، وجعلهما شريطاً ضيقاً على امتداد الساحل، واسترد بعض المواقع والحصون من مملكة بيت المقدس أهمها حصن بانياس جنوب غرب دمشق [٥]، وألحق بالفرنج هزائم منكرة قتل فيها عشرات الآلاف من رجالهم وقادتهم وأمرائهم وأسر أكثر من ذلك، فانخفضت معنوياتهم، وصار

(١) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين ص ١٤٦.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤.
(٣) سنا البرق الشامي ص ٦٥ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٧.
(٤) الكواكب الدرية ص ٢١٣ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٧.
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن دور نور الدين محمود ص ١٤٧.

همهم المحافظة على ما في أيديهم، بعد أن كانوا يطمحون للتوسع على حساب بلاد المسلمين [١]، وكان من أهم الإنجازات القضاء على إمارة الرها نهائياً، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وحصل نور الدين على ثقتهم ومحبتهم مما سهل له تحقيق وحدة بلاد الشام وشمال العراق ومصر بسهولة ويسر وبدون قتال باستثناء ما حصل في مصر [٢].

٥ – اعتماد اللين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة:

كان نور الدين محمود بحكم عقيدته وطبيعته التي تميل إلى الرحمة والرأفة يكره إراقة الدماء على غير طائل، ويسعى لتحقيق أهدافه بأقل الجهد والخسائر ولا يتردد في أساليب المكر والخداع مع العدو وصفه المؤرخون بأنه كان في السياسة والدهاء على جانب عظيم [٣] وأنه كان يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب [٤]، اتبع هذا الأسلوب مع جوسلين أمير تلك (أمير الرها سابقا) حتى تمكن من أسره - كما مرّ بنا - وفي عام ٥٦١هـ/١١٦٦م، شن نور الدين غارة مفاجئة بسرية من الفرسان على حصن المنيطرة شرق طرابلس وتمكن من احتلاله بالرغم من مناعته وقوة الحامية المدافعة عنه ولكنه بالمفاجأة، ولم يجسُر أمير أنطاكية أو أي من أمراء الفرنجة الآخرين على مهاجمته لتوقعهم أنه احتل الحصن بكامل جيشه وليس بسرية صغيرة فقط [٥]، وفي عام ٥٥٩هـ عندما حاصر الفرنجة وجيش شاور الوزير المصري أسد الدين وجيشه في بلبيس اشتد القلق بنور الدين وخشي على قواته في مصر، فأرسل مع بعض جنوده أعلام الفرنجة وسلاحهم وملابسهم مما غنمه في معركة حارم ومعركة طبريا [٦]، إلى أسد الدين المحاصر في بلبيس حتى ينشرها في أسواق بلبيس وعلى أسوارها أمام أنظار الفرنجة ليذكرهم بما حل بإمارتهم في بلاد الشام، فلما فعل أسد الدين ذلك اضطر الفرنجة لرفع الحصار والعودة إلى الشام [٧]، وكان لسلوك نور الدين مع مجير الدين آبق (حاكم دمشق) على الوجه الذي ذكرناه، أكثر الأثر في تسهيل الاستيلاء على دمشق بدون قتال [٨].

٦ – الإستراتيجية العسكرية لنور الدين:

يعرّف المفكرون العسكريون في العصر الحديث الإستراتيجية العسكرية بأنها: علم وفن بناء وتطوير واستخدام القوات المسلحة لتحقيق الأهداف الوطنية [٩]، فإذا قمنا بتطبيق هذا التعريف على ما قام به نور الدين في المجال العسكري خلال فترة حكمه، فإننا نجد بأنه كان من أعظم

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨.
(٣) الباهر ص ١٦٩ دور نورالدين محمود ص ١٤٨.
(٤) دور نور الدين محمود ص ١٤٨.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٤٨.
(٦) المصدر نفسه ص ١٤٨.
(٧) المصدر نفسه ص ١٤٨.
(٨) المصدر نفسه ص ١٤٩.
(٩) المصدر نفسه ص ١٩٢.

الإستراتيجيين في زمنه، فقد بدأ حكمه لإمارة صغيرة تتألف من مدينة حلب وضواحيها. تواجه تهديداً خطيراً من قبل الغزاة الفرنجة، ومنافسة شديدة من قِبل الإمارات الإسلامية الأخرى في بلاد الشام، وبعد ثمان سنوات (سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وبعد استيلائه على دمشق) أصبح الحاكم الأقوى في المشرق الإسلامي ومن أقوى الحكام في العالم الإسلامي، والعالم كله، فلابد من قوة عسكرية متوافرة لنور الدين، ولابد أنه أحسن إدامتها واستخدامها حتى تمكن من تحقيق إنجازه المذكور [١]. وتظهر ملامح إستراتيجيته العسكرية في النقاط التالية:

– التركيز على النوعية والفاعلية:

اعتمد نور الدين على جيش نظامي كان صغير الحجم في بداية حكمه ولكنه كان منظماً وفعَّالاً، أن نور الدين بطبيعته يهتم بالنوعية أكثر من اهتمامه بالكمية رائده في ذلك الحكمة المأثورة: القوة القليلة أفضل من القوة الكثيرة المبعثرة [٢]، فكان يحسن اختيار قادته وجنوده ويحسن إعدادهم وتدريبهم وتسليحهم، فيعوّض النقص في عددهم بزيادة فعّاليتهم، وزاد نور الدين في حوافزهم بزيادة مرتباتهم وإقطاعاتهم وتثبيت الإقطاع في أبنائهم في حالة استشهادهم، فكانوا يقولون: إنما هي أملاكنا نقاتل دونها [٣] وإذا كان أبناء الشهيد صغار عيّن لهم رجلاً أميناً يشرف على إقطاعهم حتى يكبروا، مما زاد في إخلاص الجند وحماسهم - ولائهم - فكان نور الدين يواجه أعداءه بجيشه الصغير غير مبال بكثرتهم وتفوقهم العددي، وينتصر عليهم فقد انتصر في معركة إنَّب سنة ٥٤٤هـ/١١٥٠م على جيش إمارة أنطاكية وقتل أميرها بالرغم من تفوق العدو العددي، وكذلك في معركة حارم سنة ٥٥٩هـ/١١٦٥م حقق انتصاراً ساحقاً على تجمع كبير من جيوش عديدة وكان هذا شأنه في أغلب معاركه مع الفرنجة وفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٨م انتصر جيشه في مصر بألفين من الفرسان فقط بقيادة أسد الدين شيركوه على جيش الفرنجة بقيادة ملك القدس عموري، وجيش مصر بقيادة الوزير شاور في معركة البابين، وعندما أظهر بعض الجند ترددا أو تخوفاً قبل بدء المعركة بسبب كثرة عدد العدو وقلة عددهم قام أحد رجال نور الدين المعروفين بشجاعتهم وصاح فيهم: من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك والله لأن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة ولا عذر ليأخذن إقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مُنذ خدمتموه إلى يومنا هذا ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلِّمون الديار المصرية يتصرف بها الكفار [٤].

أ – إعلان الجهاد (التعبئة العامة للأمة):

دعا نور الدين مُنذ بداية حكمه للجهاد في سبيل الله وأعلن أن هدفه تحرير بلاد المسلمين ومقدساتهم من الاحتلال الفرنجي، وراسل باقي الحكام المسلمين في بلاد الشام وشمال العراق ليساهموا معه في تحقيق هذا الهدف وتعزّزت دعوته هذه بما حققه من انتصارات على الفرنجة وما

(١) المصدر نفسه ص ١٩٢.
(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣.
(٣) الباهر ص ١٦٨ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣.
(٤) الباهر، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣.

عرف عنه من عدل وصدق وتقوى وزهد، فاكتسب مصداقية كبيرة وتحققت لـه شعبية واسعة بين عامة المسلمين في بلاد الشام والعراق والجزيرة بمختلف طبقاتهم واتجاهاتهم وصار في أعينهم رائد الجهاد ضد الفرنجة وأمل المسلمين في استعادة أرضهم ومقدساتهم المحتلة واستقطبت دعوة الجهاد أعداداً كبيرة من المتطوعين، كان نور الدين يستفيد منهم في عملياته العسكرية، وأوجدت رأيا عاماً قوياً وضاغطاً على الحكام والأمراء ليستجيبوا لدعوة نور الدين، فمن يتخلف منهم عن تلبية الدعوة يتعرض للنقد حتى من رعيته ويتهم بدينه ووطنيته، ويخشى خروج الحكم من يده ونجح نور الدين في استثمار هذا الشعور إلى أبعد الحدود، فكان يخطط للمواجهة مع الفرنجة في الوقت والمكان المناسبين ويطلب العون من باقي الأمراء والحكام المسلمين فيبادرون لإرسال القوات إليه، وغالباً ما كانوا يحضرون بأنفسهم ويضعون أنفسهم تحت قيادته فيتحقق لـه التفوق على العدو ويحقق الانتصارات الباهرة، ويحصلون بدورهم على حقهم من الغنائم ويعودون إلى إماراتهم. أدَّى تكرار هذا العمل إلى توافر القوة الكافية لنور الدين في الوقت الذي يريد دون تحمل عبء نفقات إدامة هذه القوات خلال فترات الراحة والهدوء كما أدّت هذه الظاهرة إلى تحسين العلاقة بين الحكام والأمراء العرب المسلمين وتمتينها على أساس الثقة والتعاون والتنسيق ضد العدو المشترك، وزوال الخلاف والنزاع والتنافس الذي كان قائماً بينهم فيما سبق، وأصبح النزاع في المنطقة واضحاً محدداً بين جبهتين فقط هما الجبهة الإسلامية وجبهة الفرنجة وصار نور الدين زعيم الجبهة الإسلامية بدون منافس[١].

ب – التدرُّج في مواجهة العدو:

كان نور الدين يستخدم قواته حسب إمكانياتها ولا يكلّفها فوق طاقاتها ويتجنب التورط في معركة بدون تحضير واستعداد يجعله مطمئناً إلى تحقيق النصر فيها ويقدر قوة عدوّه تقديراً صحيحاً ودقيقاً كما يقدّر قوّته بالمقابل بالمعيار نفسه وهو في هذا المجال يطبق الحكمة المشهورة اعرف عدوك واعرف نفسك تستطيع خوض مئة معركة دون هزيمة [٢]، وهذا لا يعني التقدير العددي فقط، بل كان يأخذ بالاعتبار العوامل الأخرى: المعنويات، والكفاءة والقيادة والأسلحة واستفاد نور الدين من تجربة الحملة الفرنجية الثانية درساً مهماً، ذلك أن قوة الفرنجة في المشرق الإسلامي لا تقتصر على قوة إماراتهم فيه، وإنما تشمل دعم الدول الأوروبية لهم كلما دعت الحاجة، فقرر ألا يخوض معركة فاصلة معهم إلا بعد أن تتوافر لديه القوة الكافية للقضاء على إماراتهم في بلاد الشام ومواجهة احتمالات التدخل الأوروبي سواء حصل هذا التدخل قبل الفراغ من تدمير الإمارات أم بعد وقد شكّل هذا القرار السبب الرئيسي في توجّه نور الدين وسعيه الحثيث لضم مصر إلى دولته، للاستفادة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية والحصول على القّوة المطلوبة لمواجهة الموقف المذكور [٣].

ج – إنهاك العدو واستنزاف قوّته:

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٤.
(٣) الكواكب الدرية ص ٢٠١.

إذا كانت القوة اللازمة للقضاء على ممالك وإمارات الفرنجة غير متوفرة لنور الدين قبل استيلائه على دمشق ومن بعد ذلك على مصر، فإن القوة المتوافرة لديه كافية لإيقاع ضربات موجعة بالعدو يتم من خلالها قتل قادته وأفراده وتدمير اقتصاده وتحطيم معنويات، واسترجاع ما يمكن من الأرض والقلاع والمدن التي اغتصبها من المسلمين، فقرر شن حرب استنزاف ضد الفرنجة يحقق من خلالها ما ذكر أعلاه بالإضافة إلى رفع معنويات المسلمين وإثارة روح الجهاد في صفوفهم، وما يتحقق من غنائم ومكاسب مادية تحصل من فداء أسرى العدو، تساعد في رفد موارد الدولة وتغطية نفقات الحرب [١].

٧ – تطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية:

اكتسب نور الدين خبرة واسعة ومهارة فائقة في إدارة الحرب وتطبيق مبادئها قبل تولّيه السلطة، وكان ذلك من خلال مشاركته في جميع المعارك التي خاضها مع والده عماد الدين زنكي على مدى فترة حكمه التي دامت عشرين عاماً (٥٢١هـ - ٥٤١هـ/١١٢٧ - ١١٤٧م) [٢] ومن الطبيعي أن تزداد خبرته ومهارته في هذا المجال بعد تولّيه الحكم من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الفرنجة وغيرهم وحقق فيها انتصارات باهرة، ولعلَّ مبادئ الحرب الأساسية لم تكن تحمل نفس الأسماء المعروفة بها في الوقت الحاضر إلا أن مضمونها لم يتغير مُنذ العصور القديمة وإنما تغيّرت الوسائل والأسلحة والمعدات وبعض المصطلحات، وما زالت المبادئ نفسها تدرس في المعاهد العسكرية العليا في هذه الأيام ومن مبادئ الحرب التي طبقها نور الدين:

أ – تحديد الهدف:

كان نور الدين واضح الرؤية مُنذ حكمه، كان هدفه الإستراتيجي الرئيسي في المجال العسكري تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وبما أن الهدف يتطلب إمكانيات كبيرة جداً لم تكن متوفرة لنور الدين في بداية حكمه، فقد جعل لتحقيق هذا الهدف على مراحل كل مرحلة هدفها وخطتها المستقلة والتي تتكامل كلها مع بعضها في سبيل بناء القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف الإستراتيجي وقد فصلنا ذلك فيما مضى.

ب – العمل التعرضي:

يعني هذا المبدأ مهاجمة العدو أولاً والمحافظة على زمام المبادرة وذلك بضرب العدو أولاً والمحافظة على زمام المبادرة وذلك بضرب العدو باستمرار وعدم إعطائه فرصة للاستراحة أو إعادة التنظيم ويظهر من سيرة نور الدين أنه كان مبادراً غالباً - وأنه احتفظ بزمام المبادرة في أغلب مواجهاته مع الفرنجة [٣].

ج – الحشد:

---

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٥.
(٢) الباهر ص ٧٤ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٥.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٦.

يعني هذا المبدأ تجميع قوّة ممكنة في المكان والزمان المناسبين لمواجهة العدو والتفوق عليه وقد طبق نور الدين مبدأ الحشد عدة مرات خلال مواجهاته مع الفرنجة [١].

د – المناورة: قابلية الحركة:

يعني هذا المبدأ قدرة القوات على الانتقال بسرعة من مناطق التجمع والحشد إلى ميدان المعركة في الزمان والمكان المناسبين لها دون أن يتحقق ذلك للعدو، ثم للحركة ضمن ميدان المعركة بالشكل الذي يوفر للقوات فرصة أفضل لضرب العدو والقضاء عليه، وهذا ما كان يفعله نور الدين باستمرار في إطار تطبيقه لمبدأ العمل التعرضي، فكان يختار مكان المعركة ويسبق عدوه إليه وتميز جيشه بسرعة الحركة وسرعة التجاوب لأمر الحركة لأنه كان في حالة استنفار دائمة كما عبّر عن ذلك بنفسه في جوابه لصديقه الزاهد الذي لامه على ممارسته للعبة كرة البولو وتعذيبه الخيل في اللهو واللعب، فكان من ضمن جوابه قوله:.. إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فإذا طلبنا [٢] العدو أدركناه [٣]. وكان الفرنجة في تنقل بين أطراف مملكته لتفقد أحوالها فهو في حركة مستمرة، وتعتبر حملاته على مصر من أروع الأمثلة على المناورة الإستراتيجية السعيدة كما أنها تميزت بالجرأة والسرعة وحسن التخطيط ودقة التنفيذ، ومن بين الحملات الثلاثة تميزت الثانية بأنها كانت سباقاً بين جيش نور الدين وجيش مملكة القدس على مصر، فكان السبق لجيش نور الدين الذي عبر النيل وجرَّ العدو إلى المكان الذي اختاره للمعركة فحقق انتصاراً باهراً، بالرغم من أن المسافة التي قطعها أبعد من تلك التي قطعها الجيش الفرنجي وأما المناورة في ميدان المعركة فقد كان نور الدين يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يخطط للمعركة ويديرها ويشرف على القتال فإذا التحم الجيشان واشتد القتال وحمي الوطيس اندفع لمشاركة رجاله مما يثير حميتهم وحماسهم فيتحقق النصر، وكان ينظم جيشه في المعركة ثلاثة أقسام كما هو معروف عن السلاجقة في هذا الأمر: ميمنة ميسرة وقلب وعند الاصطفاف للمعركة يكون القلب للخلف في خطة مرسومة فيندفع العدو خلفه إلى مسافة محددة ثم يثبت القلب ويضغط الجناحان على جيش العدو الذي يصبح محاصراً من ثلاث جهات وعندما يزداد الضغط على جيش العدو تضيق فسحة المناورة له فترتبك صفوفه ويسارع للهرب من الجبهة المفتوحة في الخلف بشكل غير منظم مما يجعله فريسة سهلة للقتل والأسر، نفذ نور الدين هذه المناورة في معركة إنَّب عام ٥٤٤هـ/١١٥٠م، ومعركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م بينما نفذها جيش نور الدين في معركة البابين بمصر وكان بقيادة أسد الدين شيركوه ولقد حقق نور الدين من خلال تطبيقه لمبدأ المناورة وقابلية الحركة وسرعة الحركة فائدة عظيمة بالإضافة إلى تفوّقه على العدو وانتصاره عليه، تمثَّل ذلك بنقل المعركة إلى أرض العدو، فكان الخراب والدمار يحلّ دائماً في مناطق العدو وعلى أرضه

(١) المصدر نفسه ص ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨.
(٣) الكواكب الدرية ص ٥٥ الباهر ص ١٦٤.

بينما تبقى بلاد نور الدين في أمن وسلام[١].

هـ – وحدة القيادة:

يؤدي تطبيق هذا المبدأ إلى تجاوز الخلافات وتوحيد الجهود، واختصار الوقت والإجراءات، مما يساعد في تحقيق النصر، جمع نور الدين في شخصه بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، فكان الملك وقائد الجيش في الوقت نفسه وقاد جيشه إلى النصر في أغلب المعارك التي خاضها ضد الفرنجة، وتمكن من توحيد بلاد الشام وشمال العراق والجزيرة ومصر في دولة واحدة بزعامته، فصارت الجبهة الإسلامية صفاً واحداً متراصاً في وجه الغزاة الفرنجة، بقيادة سياسية واحدة وقيادة عسكرية واحدة فتهيأت الظروف لتحقيق النصر [٢].

قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ::: ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلا على عمد ::: ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة ::: يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[٣]

س – عنصر المفاجأة: حقق نور الدين المفاجأة في أغلب هجماته على الفرنجة، فكان يربكهم ويفقد سيطرتهم على قوّاتهم ويحتل الموقع حصنا كان أم بلدة أو يقضي على القوة قبل أن تصل النجدة إليهم، حدث هذا في هجومه السريع على مدينة الرها عام ٥٤١هـ/١١٤٧م وفي هجومه على حصن أفامية عام ٥٤٤هـ/١١٥٠م، وفي هجومه على حصن بانياس عام ٥٥٩هـ/١١٦٧م [٤].

ر – الخديعة:

كان نور الدين يكثر من أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنجة، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب [٥].

ز – الاستخبارات:

كان لنور الدين عيون يثق بصدقهم وأمانتهم في كل مدينة أو حصن ضمن مملكته، وفي الدول والإمارات المجاورة: الفرنجية والإسلامية يزوّدونه بكل ما يستجدّ من أحداث، فيكون باستمرار مطلعاً على أحوال رعيته وأحوال الدول الأخرى، فيضع خططه على أساس هذه المعلومات وكان

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٠.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٠.
(٣) الشهب اللامعة ص ٢٣٧.
(٤) دور نور الدين محمود ص ٢٠٠
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٠.

دائم الحركة بين أقاليم مملكته ليتأكد بنفسه من الأوضاع العامة ومما ساعد في سرعة نقل المعلومات استخدامه وصيلة اتصالات سريعة جداً وهي الحمام الزاجل، فقد وضع نظاماً دقيقاً لاستخدام الحمام الزاجل يغطي أطراف مملكته الواسعة ومدنها الكثيرة، فبنى الأبراج على الحدود، وعلى الطرق المؤدية إلى المدن باتجاه الداخل وركّز على الحدود مع الإمارات الفرنجية ووضع في هذه الأبراج الرجال المدربين على تربية الحمام الزاجل واستخدامه فكانت الأخبار تأتيه في وقتها، وساعد هذا النظام في كشف تحركات العدو الفرنجي وفي سرعة الإجراءات للرد عليها، يقول ابن الأثير في هذا المجال: أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها واتخذت في سائر بلاده وسبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان لا يتخّللها إلا بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيّها فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك [١]، كان نور الدين يدرك أهمية المعلومات وأهمية التأكد من صحتها لأن نجاح خططه التي يضعها على أساس هذه المعلومات يعتمد على مدى دقتها وصحتها ولذلك لم يعتمد فقط على العملاء (العيون) الذين كانوا يحصلون على مرتبات ومكافآت وافرة مقابل ما يقدمونه، كوظيفة رسمية، بل كان له أصدقاء كثر من التجار والزهاد المتجولين في البلاد وبين الناس وكانوا يراسلونه باستمرار ويزودونه بالأخبار والأهم من هذا أنه كان يحصل على المعلومات عن الإمارات الفرنجية بطريقة تعرف في العلم العسكري الحديث باسم الاستطلاع بالقوة، فكان يرسل سرايا من جيشه ينتخبهم من الفرسان الأشداء إلى مناطق العدو ينفذون إغارات سريعة على مواقع العدو وحصونه ويتوغلون في بلاده وربما أقاموا معسكرات متنقلة سرّية كلما اكتشفهم العدو وطاردهم انتقلوا إلى مكان آخر، ثم يعودون بعد فترة بالكثير من المعلومات وربما كان معهم بعض الأسرى من العدو يمكن الاستفادة من معلوماتهم أيضاً[٢]، يمكن اعتبار حملته الأولى على مصر من باب الاستطلاع بالقوة للتعرف على أحوال مصر بالإضافة للمهمة الرئيسية التي كلفت الحملة بها [٣].

ط – التقرُّب غير المباشر:

طبق نور الدين هذا المبدأ عندما قرّر اتباع سياسة التدرّج في مواجهة العدو، فبدأ بأضعف الإمارات الفرنجية، إمارة تل باشر، بقايا إمارة الرها وبعد أن فرغ منها توجه بقوته نحو إمارة

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٢.
(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٢٠٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

أنطاكية فجرّدها من جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها شرق نهر العاصي، وتحوّل إلى إمارة طرابلس ففعل بها مثل ذلك، وعندما حان وقت توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس كانت خطته تقضي بالبدء من حصن الكرك الذي كان يعد نقطة ضعف بالنسبة لمملكة القدس، بالرغم من مناعته كحصن، ولكنه يقع في أطراف المملكة ولا بد لإنقاذه من توجه الجيش الفرنجي إلى منطقة الكرك مما يسهل على نور الدين اختيار مكان المعركة وجرّ العدو إليها [١]، ويظهر بوضوح تطبيق نور الدين لمبدأ التقرب غير المباشر في تعامله مع الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، خلال حملاته الثلاث على مصر فقد كان يستغل توجه جيش مملكة القدس إلى مصر ويهاجم إمارة أنطاكية أو إمارة طرابلس أو أراضي مملكة بيت المقدس ليحقق تخفيف الضغط عن جيشه في مصر من جهة، ويحقق انتصارات ومكاسب في موقف يعتبر العدو فيه ضعيفاً من جهة أخرى، ففي عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م وبينما كان جيش مملكة القدس والجيش المصري يحاصران جيش نور الدين في بلبيس، توجه نور الدين بالقوات التي تجمعت لديه من الموصل والجزيرة إلى مدينة حارم وحاصرها فتجمعت جيوش الفرنجة من أنطاكية وطرابلس بالإضافة إلى الحامية البيزنطية في أنطاكية لإنقاذها، وهذا ما كان يخطط له نور الدين فسحق هذه الجيوش وأسر جميع الأمراء المشاركين واحتل حارم ثم استثمر الفوز وتوجه إلى بانياس التي تتبع لمملكة بيت المقدس وحاصرها واحتلّها، فاضطر ملك القدس لرفع الحصار عن جيش نور الدين في بلبيس والإسراع بالعودة إلى مملكته وكان هذا أيضاً ما خطط له نور الدين وقد حققه بهجوم مفاجئ وسريع على مكان ضعيف وبعيد عن بلبيس حيث يوجد جيش مملكة القدس وكرّر نور الدين هذه الإستراتيجية عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م، عندما حاصر الفرنجة والبيزنطيون مدينة دمياط في مصر، ونجح في المرتين الأخيرتين كما نجح في المرّة الأولى في تحقيق انتصارات باهرة في الشمال وإنقاذ جيشه المحاصر في مصر [٢].

ي – الجاهزية القتالية:

كان نور الدين القدوة الحسنة في تطبيق المبدأ فقد كان كما قيل: أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك [٣]، وكان يتفقد جنوده باستمرار ويطمئن عن أحوالهم ويتفقد سلاحهم ودوابهم ويقول في هذا المجال: نحن كل وقت بصدد النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعُدد دخل الوهن على الإسلام [٤] وعلق ابن الأثير على كلام نور الدين بقوله: لقد صدق رضي الله عنه فيما قال وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه علينا [٥] وقد طبق نور الدين جميع مبادئ الحرب التي لم يرد ذكرها أعلاه كالإدارة والاقتصاد بالجهد، والبساطة والأمن والمعنويات وقد ورد كثير من هذه المبادئ في

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٣.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٣.
(٣) الباهر ص ١٦٩ دور نور الدين محمود ص ٢٠٤.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٤.
(٥) الباهر ص ١٦٩.

ذكر سيرته وصفاته وأدواره السياسية والإدارية [١].

٨ – الحرب النفسية عند نور الدين:

ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحدّدة هي: دين واحد هو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة [٢]. وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبث هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعبّاد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقرائتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة [٣]، وقد أسفرت الحرب النفسية المذكورة عن نتائج إيجابية كبيرة، فقد تحوّلت اتجاهات الرأي العام الإسلامي نحو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة واكتسب نور الدين ثقة المسلمين ومحبتهم وتعاطفهم، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على باقي الحكام والأمراء للاستجابة لدعوته للجهاد والانضواء تحت لوائه [٤]. أما الحرب النفسية الموجهة للفرنجة (العدو) فقد كان مضمونها أن المسلمين بقيادة نور الدين لن يتوقفوا عن الجهاد حتى يحرروا بلادهم ومقدساتهم المحتلة، وأن الإسلام يأمر بالعدل والمساواة والإحسان إلى الأسرى ويحرّم الظلم والعدوان، وأن من يعتنق الإسلام يكتسب من الحقوق ما للمسلمين فكان لهذه الأفكار وما عرف عن نور الدين من ورع وعدل والتزام بالعهود والمواثيق وما تحقق له من انتصارات، أثر عميق في نفوس قادة الفرنجة وأفرادهم فصاروا يرهبونه ويحترمونه في الوقت نفسه، وكانوا يعتقدون أن له سراً مع الله، فإذا طلب منه طلباً استجاب الله لطلبه [٥].

٩ – الإنجازات العسكرية:

كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام ٥٤١هـ/١١٤٧م وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيَّر الموقف العسكري فأصبح راجحاً

(١) دور نور الدين محمد في نهضة الأمة ص ٢٠٤.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثَّلت بشكل عام من ناحيتين:

الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة.

الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعَّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة ومن خلال الناحية الأولى تحققت الإنجازات التالية:

- تحرير الكثير من المدن والمواقع والحصون الإسلامية من الاحتلال الفرنجي.
- تغيير الموقف العسكري في المنطقة لصالح المسلمين والإثخان في الصليبيين وقتل عشرات الآلاف من رجالهم وأسر أكثر من ذلك وانهيار معنوياتهم.
- بث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة ورفع معنوياتهم وتوحيد جهودهم وتوجيهها نحو تحرير الأرض والمقدسات.
- الإسراع في تحقيق الوحدة السياسية لبلاد الشام وشمال العراق ومصر وشبه جزيرة العرب.
- توفير الأمن والاستقرار، مما هيأ الظروف المناسبة لتحقيق المنجزات الإدارية التي قامت على أساسها نهضة الأمة [١].

١٠ – التشابه في الأسباب بين الغزو الفرنجي والصهيوني:

قد تحدثت فيما مضى عن أسباب الحروب الصليبية من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في كتابي عن دولة السلاجقة وهذه الأسباب تتشابه مع أسباب الاحتلال الصهيوني، فمثلما أفرزت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أسباب الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي أفرزت الأوضاع نفسها في المنطقة ذاتها أسباب الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي نفسه في بداية القرن العشرين، ومثلما استخدم الغزو الفرنجي الدين لإثارة حماس الشعوب الأوروبية ودفعها للغزو استخدم الغزو الصهيوني بلباس الدين باعتبار فلسطين التي تشكل قلب المشرق الإسلامي الأرض المباركة التي منحها الرب ملكاً لبني إسرائيل قبل ألفين وخمسمائة عام وأنها كانت موطنهم في ذلك التاريخ، مما يجعل لهم فيها حقاً تاريخياً [٢] ومع السبب الديني المحرك للجانب العقائدي، هناك أسباب سياسية واقتصادية، واجتماعية، فقد كانت الأسباب السياسية من وجهة نظر الصهيونية إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، كمقدمة لإقامة دولة إسرائيل الكبرى،

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٦.
(٢) حقائق قضية فلسطين ص ١٢٠ - ١٢١ إسرائيل الكبرى ص ٢٠، ٢١.

في معظم مناطق المشرق الإسلامي وذلك كله مرحلة أولى يتبعها السعي للسيطرة على العالم في المرحلة اللاحقة، أما من وجهة نظر شركاء الصهيونية في الغزو: بريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها فكانت دوافعهم السياسية هي السيطرة على منطقة المشرق العربي الإسلامي بالتفاهم فيما بينهم، وإقامة دول تتبع لهم وتسهل مواصلاتهم مع مستعمراتهم الأخرى في جنوب شرق آسيا [١]، وتمثلت الأسباب الاقتصادية للغزو الصهيوني الأوروبي المشترك بالسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية واستغلالها لإدامة صناعاتها وجعل البلاد سوقاً لاستهلاك منتجاتها الصناعية وأما الأسباب الاجتماعية فقد تمثَّلت في خلاص اليهود المقيمين في أوروبا من حياة البؤس والشقاء والعزلة التي كانوا يحبونها بسبب تمسّكهم بمعتقداتهم العنصرية وأساليبهم الاحتكارية التي كرّهت الشعوب الأوروبية بهم وجعلت الدول الأوروبية تسعى للخلاص منهم [٢].

١١ – التشابه في الأهداف بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني:

كانت أهداف الغزو الفرنجي واضحة محدّدة، فالهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار [٣]. كان هذا الهدف مشتركاً عاماً بين جميع أطرف الغزو المؤسسة البابوية والقادة والأمراء من الفرنجة والنورمان

أما الأهداف الأخرى الفرعية فهي: أولاً: استغلال ثروات الشرق وتحقيق مغانم ومكاسب اقتصادية من التجارة والحروب وهذا هدف عام مشترك أيضاً لأطراف الغزو جميعهم شاملاً تجار أوروبا المشهورين في المدن الإيطالية، البندقية، جنوا وبيزا [٤].

ثانياً: تحقيق سيادة المؤسسة البابوية على العالم المسيحي، وتفوّق مركزها على مركز الإمبراطورية في أوروبا وإقامة كنيسة كاثوليكية في الشرق تتبع كنيسة روما، وتقضي على نفوذ كنيسة القسطنطينية وهذه أهداف خاصة بالمؤسسة البابوية [٥].

ثالثاً: الاستجابة لطلب إمبراطور بيزنطة ومساعدته في استعادة الأراضي التي احتلها المسلمون الأتراك في الأناضول، ويمكن اعتبار هذا الهدف عاماً للجميع. من جهة أخرى كانت أهداف الغزو الصهيوني واضحة ومحددة أيضاً، بالرغم من إبقائها طي الكتمان فترة من الزمن لتضليل العرب وخداعهم وكسب مساعداتهم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وعندما تكشفت هذه الأهداف بعد الحرب كانت كما يلي: الهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار، كان هذا الهدف مشتركاً بين جميع أطراف الغزو الصهيونية العالمية: بريطانيا، فرنسا. أما الأهداف الأخرى فهي: إقامة دولة إسرائيل في فلسطين وتهجير اليهود المقيمين في أوروبا والذين سيهاجرون إلى دولتهم الجديدة في فلسطين، والجانب الثاني هو خلق دولة غريبة

(١) المقصود الهند وفيتنام وكمبوديا ولاوس.
(٢) دولة اليهود ص ٣٠، ٣١، ٤٠.
(٣) الحروب الصليبية سهل زكار نقلاً عن دور نور الدين ص ٢٢١.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة.
(٥) الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية ص ٨٢، ٨٣.

في قلب المشرق العربي الإسلامي، بل في قلب العالم العربي كله، تكون أداة يستغلها البريطانيون وحلفاؤهم من دول الغرب لمنع قيام الوحدة الإسلامية الكبرى، وإغراق المنطقة كلّها في حروب مستمرة تستنزف طاقاتها، وتسهّل السيطرة الغربية عليها لاستغلال مواردها، علماً بأن الصهيونية كانت وما زالت تعتبر إقامة دولة إسرائيل في فلسطين مرحلة أولى لتتوسَّع في المراحل اللاحقة وتشمل أغلب منطقة المشرق العربي الإسلامي، وقد احتفظت بهذا الهدف لنفسها دون شركائها في الغزو [١] قال الجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في فلسطين بعد احتلال القدس عام ١٩١٧م: الآن انتهت الحروب الصليبية [٢] وقال الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية التي احتلت لبنان وسوريا عام ١٩٢٠م بعد احتلال دمشق: ها قد عدنا يا صلاح الدين [٣]، ويظهر من كلام القائدين المذكورين أن فكرة غزو المشرق العربي الإسلامي لم تبارح أذهان الأوروبيين وخاصة البريطانيين والفرنسيين مُنذ الحروب الفرنجية في العصور الوسطى وأن بريطانيا وفرنسا تعتبران احتلالهما للمشرق الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى امتداداً للحروب الفرنجية ومن الجدير بالذكر أن الفرنجة أطلقوا على مملكة بيت المقدس اسم: فرنسا ما وراء البحار، باعتبارها امتداد للوطن الفرنسي الأم [٤] علماً بأن أغلب جيوش الحملة الفرنجية الأولى خرجت من فرنسا، ولا ننسى أن الفرنسيين أطلقوا على مستعمراتهم في الجزائر، والشرق اسم فرنسا ما وراء البحار [٥] ولابد أن الصهيونية العالمية وبريطانيا وفرنسا استلهمت الكثير من تاريخ الصليبية وأحداثها في تخطيط المشروع الإسرائيلي وتنفيذه.

١٢ – التشابه في الأساليب بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني:

أقام الفرنجة إماراتهم في المناطق التي احتلّوها بالقوة العسكرية في بلاد الشام وإمارة الرها في أعالي الفرات، وقاموا بتوسيع إماراتهم على حساب الإمارات الإسلامية المجاورة بفعل العسكرية، وكذلك فعل اليهود الصهاينة، فقد هيأت لهم شريكتهم بريطانيا الظروف المناسبة في فلسطين لبناء قوتهم العسكرية التي مكنتهم من احتلال الأرض وتأسيس دولتهم عام ١٩٤٨م، ثم استمروا ببناء قوتهم العسكرية المتفوقة حتى تمكنوا من توسيع رقعة دولتهم على حساب الدول العربية المجاورة عام ١٩٦٧م، ولا يزالون حتى الوقت الحاضر حريصين على تحقيق التفوق العسكري في المنطقة لأنهم يعلمون علم اليقين أن تغيير موازين القوى لصالح الدول العربية يعني زوال دولتهم من الوجود، تماماً كما حصل مع الفرنجة الذين قامت إمارتهم بفعل القوة العسكرية، فلما تغيّرت موازين القوة لصالح المسلمين زالت إماراتهم من الوجود ولذلك تبذل إسرائيل كل جهودها وتسعى الصهيونية العالمية بكل طاقاتها من خلال نفوذها في الدول العظمى، لحرمان الدولة الإسلامية من امتلاك الأسلحة المتطورة أو بناء قوة عسكرية متفوقة يمكن أن تشكل خطراً على إسرائيل فإذا ما

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.
(٢) أبعاد في المواجهة الشعوبية الإسرائيلية ص ٢٨٠.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.
(٤) الحروب الصليبية د. قاسم عبده ص ٧.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.

ظهرت قوة إسلامية يمكن أن تشكل خطراً عليها بادرت إسرائيل بشن الحرب لتدمير هذه القوة قبل اكتمال بنائها حصل ذلك في حرب عام ١٩٥٦م وفي حرب ١٩٦٧م، وفي قصف المفاعل النووي العراقي [١] عام ١٩٨١م وإذا لم تستطع تدمير هذه القوة العربية بنفسها سخرت القوى العظمى لتحقيق ذلك، كما حصل في حرب الخليج بداية التسعينيات عندما شجعت الصهيونية العالمية الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب الأخرى على شن الحرب ضد العراق وتدمير قوّته العسكرية المتنامية التي كانت في نظرهم تشكل خطراً كبيراً على إسرائيل [٢]، ويحتل مبدأ استخدام القوة العسكرية المتفوقة المقام الأول في الإستراتيجية الوطنية الإسرائيلية، وضع هذا المبدأ أحد روّاد الحركة الصهيونية المشهورين، اسمه آشر غتربرغ وأطلق على فكرته التي تحولت مع الوقت إلى عقيدة راسخة في الذهنية الصهيونية اسم (التجمع والاقتحام)، ويقول بأنه استلهمها من تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام وانقضاء فترة التيه في صحراء سيناء، فقد تشبعوا بروح الاقتحام والفتك التي مكنتهم من احتلال فلسطين [٣]. وكان جابوتنسكي أول من طبق عقيدة التجمع والاقتحام في فلسطين عام ١٩٢٠م باستخدامه الأسلحة النارية في أول صدام بين العرب واليهود في القدس وهو أول من دعا إلى تشكيل المنظمات الإرهابية اليهودية التي ارتكبت أبشع المجازر بحق العرب في القرى والمدن الفلسطينية ثم تحولت تلك المنظمات بعد قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م إلى الجيش الإسرائيلي: يقول مناحم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، الذي كان عضواً في عصابة أرغون الإرهابية وتلميذاً لجابوتنسكي: إن المبدأ الرئيسي لكل إسرائيلي يجب أن يكون: أنا أحارب فأنا موجود [٤]. ويقول ديفيد بن غوربون أول رئيس وزراء لإسرائيل: سوف نواجه العرب بالقوة، إن النتيجة الوحيدة المتوقعة لهذا الصراع هي النتيجة التي تفرضها القوة: ويقول مائير كهانا أشهر المتطرفين اليهود وكان عضواً في الكنيست الإسرائيلي: حدود إسرائيل هي حيث يقف الجنود الإسرائيليون [٥] وقد تشابهت أساليب الغزو الصهيوني مع أساليب الغزو الفرنجي في مجالات من أهمها:

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٢.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢، ٢٢٣.
(٣) حرب الخليج وأثرها على العالم الإسلامي ص ٦.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٤.

أ – الاعتماد على المساعدة الخارجية:

اعتمدت الإمارات الفرنجية في المشرق العربي الإسلامي في توسعها واستمرارها على الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي كانت تعتبر الدولة الأم لتلك الإمارات. كانت هذه المساعدة تشتمل المال والسلاح والرجال وكانت تأتي في بعض الأحيان على شكل جيوش متكاملة بقيادة ملوك وأباطرة أوروبا. عندما تواجه الإمارات الفرنجية خطراً، كما حصل بعد تحرير مدينة الرها، عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام ١١٤٥م [١]. وأما اليهود الصهاينة فقد وضعوا خططهم منُذ البداية استغلال قوة ونفوذ الدول العظمى في تحقيق أهدافهم [٢]، وها نحن نرى الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل.

ب – الهجرة والاستيطان:

استقرَّت جيوش الحملة الأولى الصليبية في المناطق التي احتلتها من بلاد الشام وأقامت فيها الإمارات الفرنجية المعروفة، بعد ذلك تدفق المهاجرين من أوروبا إلى تلك الإمارات بأعداد كبيرة، ومع أن بعضهم كان يأتي لغرض الحج إلى القدس ويعود بعد إكمال الزيارة إلا أن غالبيتهم كانوا يأتون بقصد الإقامة والاستيطان كانت هذه الهجرة متواصلة وبأعداد كبير زادت في بعض الحالات عن أعداد بعض الحملات المنظمة التي عرفت بأرقام متسلسلة [٣]. ساعدت هذه الهجرة على زيادة قوَّة الإمارة الفرنجية، وتوسّعها وصمودها في وجه القوة العربية الإسلامية التي كانت تحاول القضاء عليها [٤]، على الجانب الآخر كانت هجرة اليهود إلى فلسطين تشكل الركن الأساسي في المشروع الصهيوني لإقامة دولة اليهود فيها، وحظي موضوع الهجرة من حيث الدعاية لها وتنظيمها وتنفيذها بالقسط الأوفر من اهتمام المفكرين الصهاينة الأوائل، ومن أهمهم تيودور هرتزل أول زعيم للصهيونية العالمية الذي وضع فصلاً خاصاً في كتابه المشهور (دولة اليهود) عن الهجرة وأهميتها وتنظيمها وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه بعد قيام دولة اليهود [٥] إلى يومنا هذا.

ج – تضليل الرأي العام وخداعه:

قامت المؤسسة البابوية التي خططت للحروب الفرنجية وأشرفت على تنفيذها بتضليل الرأي العام الأوروبي من خلال الدعاية الكاذبة التي كانت تسبق كل حملة، فقد افتتح البابا أوربان الثاني الحملة الدعائية الكبيرة للحرب الفرنجية في خطابه المشهور عام ١٠٩٥م في مجمع كليرمونت، وادّعى فيه أن المسيحيين في المشرق الإسلامي يتعرضون للاضطهاد والتعذيب والقتل وأن بيوتهم وكنائسهم تحرق وتُهدم وأن المسلمين، البرابرة المتوحشين، استولوا على مدينة القدس ومنعوا المسيحيين المؤمنين من زيارة قبر السيد المسيح فيها ولذلك يوجب على مسيحيين أوروبا نجدة

(١) دور نور الدين محمود ص ٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٦.

إخوانهم مسيحي الشرق وتخليصهم من الاضطهاد والتعذيب والقتل، وتحرير قبر المسيح من سيطرة البرابرة المسلمين [١]، انتشرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة في أوروبا على يد رجال الكنيسة وكان لها أثر كثير في إثارة الحماس الديني لدى الأوروبيين، فتجمعت حشودهم وتوجهت تحت راية الصليب لحرب المسلمين وبنفس الأسلوب جرت الدعاية الصهيونية المضلِّلة قبل الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي، فقد قامت وسائل الإعلام الأوروبية الخاضعة لسيطرة الصهيونية العالمية بتصوير المسلمين على أنهم بدو رحّل يعيشون في الصحراء مع مواشيهم، وأن اليهود سيهاجرون إلى تلك البلاد التي تعتبر موطَنهم الأصلي لاستصلاح الأراضي وزراعتها وتعميرها ولبناء معبدهم القديم في القدس (هيكل سليمان) [٢] وكانت الدعاية الصهيونية تركز على أوضاع اليهود في مختلف دول العالم باعتبارهم مضطهدين محرومين من أدنى الحقوق الإنسانية وأن من حقهم أن يعودوا إلى أرض آبائهم (فلسطين) ليقيموا لهم فيها وطناً قومياً كباقي شعوب الأرض [٣].

ح – الإرهاب والعنف:

ارتكب الفرنجة مجازر بشعة بحق المسلمين في المدن والقرى التي استولوا عليها، وشكّلوا فرقاً عسكرية خاصة من خيرة فرسانهم، وكانت تقوم بشن الغارات على المدن والقرى الإسلامية وتقوم بأعمال القتل والسلب والتخريب وتشيع الخوف والرعب بين السكان، فكانوا لا يتورّعون عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، حتى أنهم تعرّضوا لقوافل الحجاج بالقتل والنهب [٤].

وقد تبنى الصهاينة الأسلوب نفسه في غزوهم لفلسطين، فشكَّلوا مُنذ العشرينيات قبل قيام دولتهم، عصابات إرهابية كانت مهمتها اقتحام القرى الآمنة، وإبادة سكانها من الرجال والنساء والأطفال بصورة همجية بشعة لإثارة الرعب والهلع بين السكان المسلمين وإجبارهم على مغادرة مدنهم وقراهم وأرضهم والهجرة إلى خارج فلسطين [٥]، واندمجت العصابات الإرهابية اليهودية بعد قيام دولة إسرائيل لتشكيل الجيش الإسرائيلي، الذي تولى مهمة تنفيذ العمليات الإرهابية ضد السكان المسلمين وأصبحت هذه العمليات سياسية رسمية لإسرائيل، تنفذها وحدات من الجيش الإسرائيلي الذي أطلق عليه قادة إسرائيل اسم (جيش الدفاع) زوراً وتضليلاً، بينما هو في الحقيقة أكثر جيوش الأرض عدواناً [٦]، ولم تقتصر عمليات الإرهاب والقتل والاغتيال على السكان المسلمين في فلسطين بل تعدّت إلى الدول المجاورة وحتى البعيدة فقد قامت القوات الخاصة الإسرائيلية بتنفيذ عمليات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان وتونس وجرت محاولات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في مختلف الدول العربية والأجنبية [٧].

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٦.
(٢) دولة اليهود ص ٤٩.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمرة ص ٢٢٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٧.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٨.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٢٨.